٢
الطبعة الثانية

من مكة إلى لاس ڤيجاس

أطروحات نقدية في العمارة والقداسة

د. علي عبد الرءوف

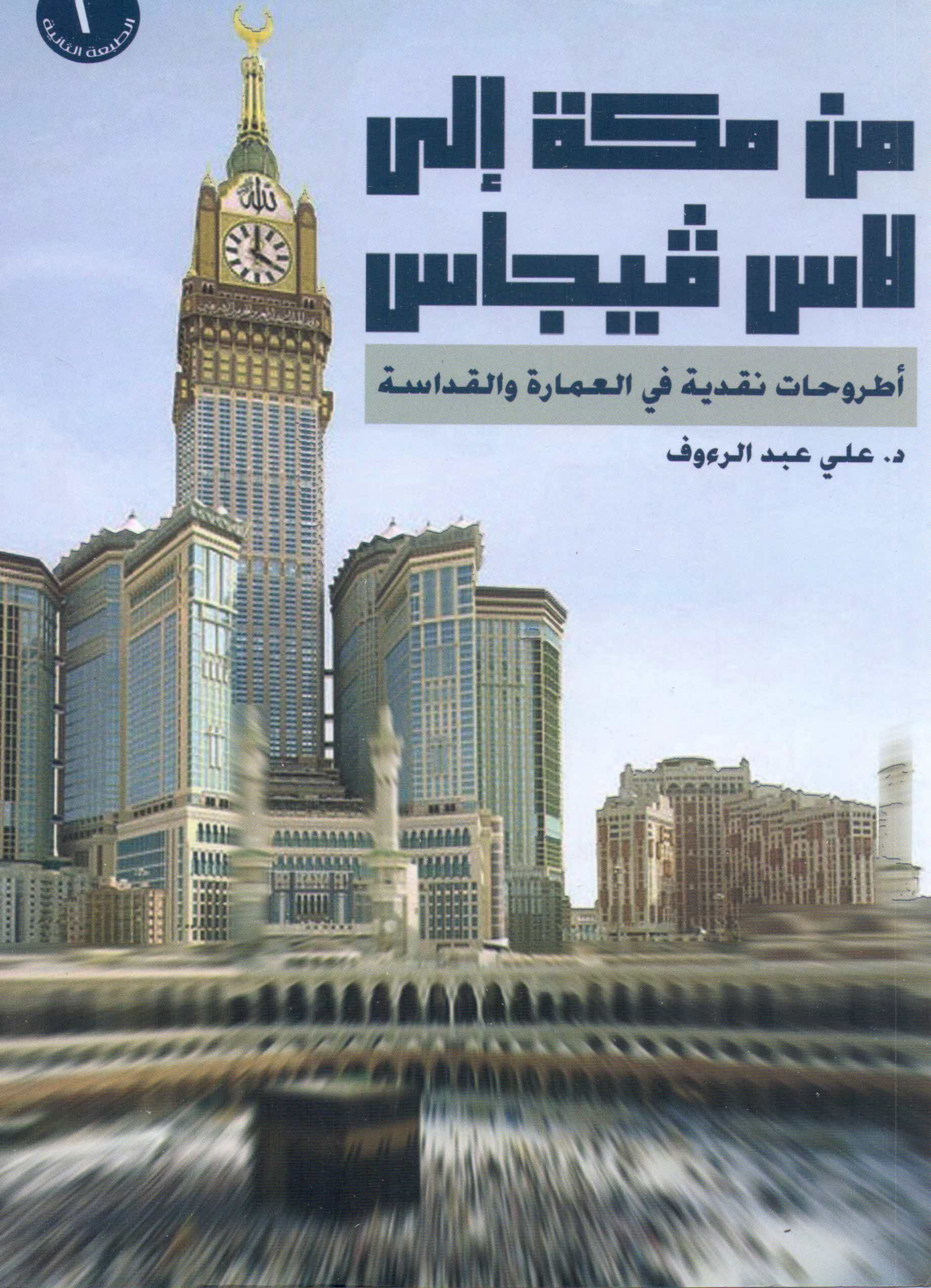

من مكة إلى لاس ڤيجاس

أطروحات نقدية في العمارة والقداسة

«يناقش الكتاب، باستفاضة، مشاريع "تطوير" وتوسعة الحرم المكي الشريف، في إطارٍ أوسع من التأريخ المعماري والعمراني للمدينة الإسلامية عمومًا ومدن الخليج العربي في نُسخها المعاصرة خصوصًا، مع اهتمام خاص بالتاريخ المعماري والعمراني لمدينة مكة المكرمة، وبيان منزلتها لدى المسلمين، ثم توجيه النقد البنَّاء لمشاريع التطوير والتوسعة تلك، وإيضاح مثالبها، وإيجاد بديلٍ لها، يُسهم في تيسير الحجِّ على عموم المسلمين، ويحفظ قدسية المدينة، وينقذها مما سمَّاه المؤلِّف تغوُّل الرأسمالية المادية الباردة على بنيتها الحديثة.

هذا الكتاب -إذن- محاولة في فهم هذا النمط الجديد من العمران، في جدليته مع بيئته الطبيعية والإنسانية، ومحاولة قياس مدى توافق هذا النمط مع تلك البيئة التي وُضِعَ فيها، من حيث مدى قبولها أو رفضها له، خاصة في سياق مدينة عريقة مقدسة كمكة المكرمة.»

د. علي عبد الرءوف

معماري ومصمِّم عمراني وناقد وأستاذ جامعي، ولد بالقاهرة، وحصل على الدكتوراه في دراسة الإبداع المعماري والعمراني، وعلى درجة الماجستير في النقد المعماري، وبكالوريوس العمارة من جامعة القاهرة. وقام بتدريس التصميم المعماري ونظريات العمارة والعمران في عدة جامعات أهمها: القاهرة، البحرين، قطر، العلوم الحديثة والفنون.

حصل د. عبد الرءوف على عدة جوائز محلية وإقليمية في العمارة والبحث العلمي، ونشر أكثر من ٨٠ مقالاً وورقة بحثية منشورة في العديد من المؤتمرات الدولية والدوريات العالمية.

مدارات للأبحاث والنشر

MADARAT for Research and Publishing

من مكة إلى لاس ڤيجاس

أطروحات نقدية في العمارة والقداسة

الطبعة الأولى: ربيع الأول ١٤٣٥/يناير ٢٠١٤
الطبعة الثانية: المُحرَّم ١٤٣٦/نوفمبر ٢٠١٤

من مكة إلى لاس ڤيجاس؛ أطروحات نقدية في العمارة والقداسة
د. علي عبد الرءوف
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٦٤٩/٢٠١٣
الترقيم الدولي: ISBN 978- 977- 85022- 5- 1
جميع الحقوق محفوظة©
مدارات للأبحاث والنشر
العنوان: ٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة
تليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
(الآراء الواردة بهذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر)

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

د. علي عبد الرءوف

من مكة إلى لاس ڤيجاس

أطروحات نقدية في العمارة والقداسة

مدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين

"سورة العنكبوت، آية ٦٩"

المحتويات

الموضوع	الصفحة
كلمة المركز	١١
مدينة الطوباوية الرأسمالية؛ تقديم: بقلم البروفيسور ناصر الربَّاط	١٣
تصدير	٢١
البداية: رباعية من الصدمات	٢٤
الفصل الأول	
تاريخ المكان وقداسة العمران	٢٧
مكة المكرمة: سرد التاريخ المقدس	٣٠
مكة المكرمة: المكانة التاريخية والروحانية	٣٠
قصة الحرم المكي: الجذور التاريخية للمدينة، قداسة المكان والزمان	٣١
بلورة النسيج العمراني حول مكة المكرمة	٣٦
الإطار الجغرافي لمكة المكرمة	٣٨
الأطر الروحانية لمكة المكرمة	٤١
التطور العمراني لمكة والحرم المقدس	٤٢
تأثير الحرم المكي على السياق العمراني لمكة	٤٤
الفصل الثاني	
القداسة والعمارة: مفاهيم العمارة المقدسة	٥١
العمارة والقداسة والتعاطف الإنساني	٥٤
عمارة وعمران الفراغات المقدسة	٥٧

في فهم روحانية عمران المجتمعات الإسلامية ٦٠
الفلسفة الروحانية لمشقة رحلة الحج ٦٣
روحانية البيئة المبنية : من المبنى إلى المدينة ٦٨
عمران المجتمعات الإسلامية المعاصرة : الأزمة الإبداعية ٦٩

الفصل الثالث

أبراج مكة: نوايا التحديث وإشكاليات التشويه ٧٣
عولمة المدن الخليجية المعاصرة ٧٨
مكة : مدينة متعولمة المظهر أم مدينة مقدسة الشكل والمضمون ٨٣
الموقف المجتمعي والقدرة النقدية للنخبة السعودية ٨٦
إشكالية استدامة الروحاني والمقدس ٨٨
صراع القيم العقارية والقيم التراثية ١٠١

الفصل الرابع

مكة المكرمة ولاس ڤيجاس : تنويعات على لحن واحد ١٠٧
القيمة العقارية والدورة الاستثمارية ١١١
الهدم هو الحل ١١٣
الانبهار المبهر والبقاء للأضخم ١١٩
مكة المكرمة للأغنياء فقط : انتصار الطابع اللاسڤيجاسي للمدينة المقدسة ١٢٠
غرفة بمنظر خلاب: مشهد للحاج الثري فقط ١٢٠
احتضار المقدس أم استحضاره ١٢٢
البرج هو الحل، عمارة مكة العملاقة : غابة المآذن والأبراج والأوناش ١٢٥
معنى احترام كرامة الكعبة وقدسيتها وثقافتها ١٣٣

الفصل الخامس

لاس ڤيجاسية مكة المكرمة : بين الحقيقي والمتخيل ١٣٩

التداعيات على التأثير الروحاني للمكان ١٤٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حالة العمارة والعمران ١٤٨
هل برج فندق الساعة الملكية بمكة المكرمة إهانة للإسلام والذوق ١٤٩
القداسة المكانية: من القدس إلى مكة ١٥٣
ملاحظات ختامية ١٦٠
المراجع والقراءات المختارة ١٦١

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦]

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧].

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١].

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥].

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦].

صدق الله العظيم

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على سنتهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد..

فهذا كتاب: «من مكة إلى لاس ڤيجاس؛ أطروحات نقدية في العمارة والقداسة»، وهو الكتاب الأول في سلسلة كتب متصلة ستصدرُ عنَّا تباعًا إن شاء الله. تتناول قضايا العمارة وعلاقتها بالحضارة والسلّطة، وطبيعة العمارةَ الإسلامية، ومواضيع أخرى على امتداد الجغرافيا المدينية المسلمة، ثم الحداثة وعلاقتها بالاستعمار في مصر الحديثة وفلسطين المحتلة تحديداً.

يناقش الكتاب، باستفاضة، مشاريع «تطوير» وتوسعة الحرم المكي الشريف، في إطار أوسع من التأريخ المعماري والعمراني للمدينة الإسلامية عمومًا ومدن الخليج العربي، في نُسخها المعاصرة، خصوصًا. مع إهتمام خاص بالتاريخ المعماري والعمراني لمدينة مكة المكرمة، وبيان أهميتها الخاصة للمسلمين، ثم توجيه النقد البنَّاء لمشاريع التطوير والتوسعة تلك، وبيان مثالبها، وإيجاد بديل لها، يُسهم في تيسير الحجِّ على عموم المسلمين، ويحفظ قدسية المدينة، وينقذها مما سمَّاه المؤلِّف تغوُّل الرأسمالية المادية الباردة على بنيتها الحديثة.

هذا الكتاب -إذن- محاولة في فهم هذا النمط الجديد من العمران، في جدليته مع بيئته الطبيعية والإنسانية، ومحاولة قياس مدى توافق هذا النمط مع تلك البيئة التي وُضِعَ فيها، من حيث مدى قبولها أو رفضها له، خاصة في سياق مدينة عريقة مقدسة كمكِّة المكرمة.

أما المؤلِّف فهو: الأستاذ الدكتور علي عبد الرءوف؛ معماري ومصمِّم عمراني وناقد وأستاذ جامعي، ولد بالقاهرة، وحصل على الدكتوراه في دراسة الإبداع المعماري والعمراني، وعلى درجة الماجستير في النقد المعماري، وبكالوريوس العمارة

من جامعة القاهرة. وقام بتدريس التصميم المعماري ونظريات العمارة والعمران في عدة جامعات أهمها القاهرة، البحرين، قطر، العلوم الحديثة والفنون. حصل د. عبد الرءوف على عدة جوائز محلية وإقليمية في العمارة والبحث العلمي، ونشر أكثر من ٨٠ مقالاً وورقة بحثية منشورة في العديد من المؤتمرات الدولية والدوريات العالمية.

ونحن إذ ننشر هذا الكتاب، فإننا نأمل أن يكون خطوة أولى للفت انتباه عموم المسلمين إلى ما يحدث في الحرم المكي الشريف، ثم النظر فيه بجدية، ومحاولة إيجاد حلول عملية تُيسِّر الحجَّ، وتحفظ قدسية الحرم.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

مدارات للأبحاث والنشر

تقديم

مدينة الطوباوية الرأسمالية

ناصر الربَّاط(*)

مكة المكرمة مدينة لاكغيرها من المدن. أولى مدن الإسلام المقدسة وأهمها، وقبلة صلوات المسلمين على مر العصور. تشد إليها الرحال من كل فج عميق ويزورها كل سنة ملايين المسلمين ساعين لاستكمال دينهم والتزود منها بعبق روحاني يعينهم على مواصلة الحياة والتهيؤ لمابعدها. لاتشابهها في ذلك سوى بعض المدن المقدسة الأخرى في العالم كالقدس وروما وبنارس وسان جوان دي كومبستللو التي يحج إليها مؤمنوها ويتكبدون لأجل ذلك مصاعب الطريق ووعثاء السفر. بل إن مكة تزيد عليهم في أن الحج إليها فريضة على كل مسلم ومسلمة إن استطاعا إلى ذلك سبيلاً، مما يعني تعاظم التدفق إليها في موسم الحج عما غيرها من المدن المقدسة وتطاوله على مدى العام في زيارات المعتمرين. وقد تراكم فيها على مدى الخمسة عشر قرنًا من تاريخ الإسلام ذكريات كثيرة ابتداءًا من أصولها ماقبل التاريخية من إعادة بناء البيت على أيدي إبراهيم واسماعيل بعد ظهوره الأول على عهد آدم أبو البشر، ثم إلى الحدث الأعظم من ولادة الرسول ﷺ وترعرعه فيها وولادة رسالته واشتداد عودها فيها، ثم عودته إليها ظافرًا وفاتحًا عند اكتمال رسالته، مرورًا بما خلَّفه فيها الملايين من المقيمين والزائرين والمجاورين من عامة المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها وماصنعه وبناه الحكام الطامحين إلى تخليد أسمائهم فيها من ذكريات مبنية ومرئية ومكتوبة ومحكية، وانتهاءًا بمشاريع التوسع العملاقة التي طوقتها من كل حدب وأزالت الكثير من معالمها القديمة في نصف القرن الماضي وبخاصة في السنوات العشرين الأخيرة.

تاريخ وتمويل ومغازي ومعاني مشاريع التوسع هذه، على الرغم من أهميتها الفائقة، من الموضوعات المسكوت عنها في الدراسات النقدية المعاصرة. هذا لايعني أن

---

(١) معماري ومؤرخ سوري، يشغل وظيفة أستاذ الأغاخان للعمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

الصحافة لم تغط هذه المشاريع عند الإعلان عنها أو بعد إنشائها، أو أن الأدبيات المهنية من هندسة وعمارة وإدارة وتمويل لم تدرسها. فهناك العديد من المقالات الصحفية والبحوث العلمية التي وصفت وحللت تصميماتها وهندستها وتكنولوجياتها المتطورة وتعقيد إدارتها وتخديمها. هذه الدراسات كلها تلاحظ ضخامة مشاريع التوسع هذه وشموليتها وتعقيدها وارتفاع كلفتها الفلكية، حيث إن الدولة السعودية، بما إنها مسؤولة عن المدينة، قد آلت على نفسها تأمين الحج بكل خدماته ومتطلباته، والتوسع في ذلك مع توسع عدد الحجاج وبلوغهم الرقم الهائل، ٣ ملايين حاج في الموسم، كلهم يريد سقفًا وطعامًا وصحة وأمانًا وسهولة في التنقل لأداء شعائر الحج في المدينة وحولها. ولكن هذه الأدبيات على كثرتها نادراً ماتتطرق إلى ماهو أبعد من القبول بضرورة التوسع على الرغم من أكلافه الباهظة ماديًا وعمرانيًا ومعنويًا واجتماعيًا، أو إلى التساؤل عما إذا كانت مشاريع التوسع هذه، التي لاتطرح عادةً للنقاش قبل تنفيذها على جمهور السعوديين أو مسلمي العالم الذين يمتلكون حقوقًا رمزية في المدينة المقدسة، ضرورية أصلاً أو أنها تتقيد بمعايير احترام قدسية المدينة وثرائها المتنوع بالذكريات الإسلامية المتراكمة. فالكل يتوقف عادةً عند ملاحظة سخاء الدولة السعودية في تنفيذها ويلتزم الصمت حيال الدوافع الكامنة وراء ضخامة بعضها أو مبررات احتلالها لمواقع معينة في المدينة، أو، وهذا موضوع شائك حقًا، ماتسببه هذه المشاريع من أضرار للبنى المدنية والعمرانية والثقافية للمدينة المقدسة أو ماتدمره في طريقها من مواقع وشعائر وذكريات ومحيطات حياة للمكيين أو للمسلمين عمومًا. أي أن النقد، بمعناه المعرفي الواسع، غائب أو شبه غائب من دراسات مشاريع التوسع العملاقة في مكة المكرمة، قبلة المسلمين الأولى.

لهذا أسباب عديدة أولها غياب النقد عمومًا في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، من جملة مايغيب من الأدوات المعرفية التي طورتها الإنسانية في العصور الحديثة، تارة بادعاء عدم مواءمتها للتراث الفكري العربي والإسلامي وثوابته العقدية والإيمانية، وتارة بسبب اتهامها بالارتباط بالاستعمار الغربي والامبريالية العالمية وغيرها من الشماعات التي تعودنا كسلاً أن نعلق عليها نواقصنا وعجزنا بدلاً من مواجهة تحديها وتعلم طرائق عملها واستخدامها لمقارعتها في ميادينها نفسها. وتارة بسبب تخلف

أساليب تعليمنا مما يجعل عموم مثقفينا ومتعلمينا هيابين للنقد ومنه ومختصرينه إلي التقريع فقط ومتجاوزين دوره المعرفي الأساسي في علاقته بالمنقود. وهناك أيضًا أسباب أكثر مباشرة بعضها يتعلق بشح مجال النقد في الدراسات المعمارية والعمرانية بشكل خاص في اللغة العربية مقارنة مثلاً بالنقد الأدبي أو الشعري التي برع أجدادنا بها واقتفى مثقفونا أثرهم في العصر الحديث. ولكن السبب الأكثر أهمية هو السعي الدؤوب للسلطات السعودية، والمستثمرين في مكة من سعوديين وشركات متعددة الجنسيات وعابرة للقارات لقمع أي محاولة لنقد هذه المشاريع النيوليبرالية الرابحة في المدينة المقدسة وتصويره على أنه خروج على مبادئ الدين الحنيف تارة، أو نكرانًا لفضل السلطات السعودية في تيسير الحج وسهرها الدائم على توفير مايجتاجه الحجيج -وهو كبير بالفعل- تارة أخرى. وتبقى مكة المدينة ومكة الذاكرة الجمعية الإسلامية ومكة منبع الروحانية والقداسة في الإسلام الخاسر الأكبر من انعدام النقد هذا.

من هنا تأتي أهمية كتاب علي عبد الرءوف «من مكة إلى لاس ڤيجاس؛ أطروحات نقدية في العمارة» والقداسة هذا. فالكاتب امتلك من الجرأة المعنوية والأدبية والإحساس الإسلامي المخلص مادفعه لكسر الحاجز الوهمي الذي منع الكثيرين غيره، إلا فيما ندر ممن يعطيهم حقهم في الاعتراف بالأسبقية في نصه، من سبر وبحث وتحليل ونقد مشاريع التوسع المكية في العقود القليلة الماضية وتسارعها في السنين العشر الأخيرة خاصة. وقد امتلك من الإلمام بأدوات النقد الحديث، بسياقاتها المعمارية والتاريخية والإحصائية، ماسمح له بأن يقارب الموضوع من زواياه المختلفة بحيث أنه تطرق للعوامل التاريخية والمعمارية والتصميمية والإيمانية والاعتقادية والسياسية والتمويلية والنيوليبرالية والثقافية التي تضافرت جميعها بخلق واقع مكة المرعب حاليًا وبشكل خاص المنطقة المركزية منها حول الحرم. وقد نجح في كتابه هذا، المثقل بشجون الغيور على مدينته المقدسة وذكرياتها ومآلاتها في سرد قصة التوسعة بتفاصيلها والبحث في غوامض مسبباتها وخلفياتها، وتسليط الضوء على بعض المسكوت عنه من هذه الدوافع والخلفيات، ونقدها دون أن يغمط أي من الأطراف الفاعلة في قصة التوسعة حقه من المدح والذم والتنبيه. وهو بعد ذلك كله، قد تمكن من استخدام نقده

بطريقة بنَّاءة لاقتراح طرق لمعالجة بعض الضرر الذي أصاب المدينة في السنين الماضية أو لتلافي استمراره أو حتى في إعادة استدراك ما فُرط فيه من خلال مشاريع التوسعة المكية. وقد صاغ مقاربته النقدية والواعية صياغة لطيفة حيث أنه قدم نفسه ليس فقط كباحث مراقب مدقق ودارس بل كفرد منفعل ومؤمن وملتزم بعمران مكة واحترام قدسيتها، ومتألم مما آل إليه وضع عمرانها التاريخي المبني والمتذكر، مما أضفى على كتابه حميمية وألفة وأعطى لصوته رنة صادقة ومباشرة.

ولكن نقد علي عبد الرءوف، على الرغم من تركيزه على مشاريع التوسعة في مكة المكرمة بشكل كبير، فهو يتجاوز حدود المدينة وحدود ذكرياتها وقدسيتها لكي يقدم رؤية نقدية لظاهرة أوسع من المدينة المقدسة، ألا وهي ظاهرة المدينة الخليجية المعاصرة التي اقترح «مايك ديفيس»، العمراني الأمريكي المشهور، لها اسم المدينة الطوباوية الرأسمالية. فعبد الرءوف يرى أن التوسعة الأخيرة في مكة المكرمة المعاصرة جعلتها أقرب إلى أن تكون واحدة من هذه المدن الخليجية منها من أن تكون المدينة المقدسة المتفردة والمتميزة التي كانتها منذ ظهور الإسلام وحتى الماضي القريب. هذه المدن الخليجية التي كانت تنام وادعة على شواطئ هادئة أو في طيات صحارى شاسعة حتى جيل مضى تبني اليوم بوتيرة هائلة وتتوسع أفقيًا وشاقوليًا بسرعة خيالية. ولايقتصر الأمر على دبي التي أصبحت رمزًا للانفلات العمراني والمبالغة الاستهلاكية الهائلة بل يتعداه لكل مدن الكويت وقطر والإمارات والبحرين وعمان والسعودية. كلها منغمسة في عملية يمكن أن نسميها نسبة إلى دبي مدينة منشأها «بالدبينة»، أو نسبة إلى «لاس ڤيجاس» كما يقترح عبد الرؤوف قاصداً بذلك تحليل المعماري الأمريكي الشهير «روبرت فينتوري» لظاهرة «لاس ڤيجاس»، وإن كانت كلاً منها تفتش لنفسها عن صورة خاصة أو وظيفة مغايرة تميزها وتعطيها شيئًا من التفرد في حلبة منافسة حادة على استقطاب رؤوس الأموال. ولكن هذه الطفرة في الخليج ماهي بالحقيقة إلا «صورة نهضة» أكثر منها نهضة حقيقية عمرانية كاملة متكاملة. فهي في الحقيقة قد تجاوزت التسلسل التاريخي الذي أنتج الحداثة من دون أن تمر به وقفزت مباشرة إلى مابعد-حداثة الرأسمالية المتأخرة، معربة على ثقافة الاستهلاك والاستثمار؛ طرفي الدائرة الاقتصادية النيوليبرالية الشرسين. ومدن الخليج، من خلال تسابقها على استنساخ هذه

الصورة، قد نجحت في أن تكون معاصرةً بالمعنى الرأسمالي العولمي للكلمة، أي الحاوية والمحتوية لمفاهيم السوق والاستثمار والاستهلاك، بغض النظر عما افتقدته من مراحل النمو الصناعي والمعرفي والتقدم العلمي والاجتماعي والتكنولوجي والثقافي بالمعنى الشامل للثقافة.

هذا التخطي المتعجل له جذوره التاريخية طبعًا، ولكن تداعياته الحالية تظهر أكثر ماتظهر في البنية السياسية السائدة والقامعة لكل فكر مغاير، وفي النسيج الاجتماعي التقليدي الذي يلغي دور قطاعات كاملة من المجتمع كالنساء والشباب، وفي برامج التعليم والابداع التي مازالت تركز على التقليد والحفظ والامتثال للقواعد والعادات واحترام السلطة ومإلى ذلك من مناحي ثقافة ماقبل عصر الصناعة. هذه الثقافة التي ربما كانت مناسبة لمجتمع بسيط لم يتطلب الكثير من الرفاهية وفضل النسيج الاجتماعي القوي على الحراك الاجتماعي الضروري لكل عملية اقتصادية انتاجية. ولكن الحال تغير اليوم، إذ ارتفع مستوى الدخول في دول الخليج ارتفاعًا هائلاً وازدادت متطلبات المجتمع والأفراد من أدوات الاستهلاك والرفاهية والاتصالات وغيرها مما لايُمكِّن للسوق المحلي من تلبيته بحال. زادت ثقافة الاستهلاك بزيادة الثراء ولم يقابلها بعد ثقافة الانتاج فتعاظم دور الاستهلاك في تحديد هوية المواطن على حساب الانتاج، وظهر في الخليج نموذج أكثر حدة من المستهلك الثري الذي يحدد استهلاكه دوره الاجتماعي والاقتصادي وحقوقه السياسية وأفقه الثقافي وحراكه المدني. وجاءت الأصولية الدينية المتجذرة والمدعومة من قبل قطاعات واسعة من الحكام والمستفيدة من الوضع القائم لكي تؤطر هذه الثقافة وتحجّرها في قوقعة فقه مغرق في التزمت والانغلاق على الذات، معطوفًا على عنجهيةٍ متباهية أمّنها ثراء النفط.

ولكن ما زاد الطين بلة في حالة مكة المكرمة، كما يوضح عبد الرءوف، هو البعد المقدس للمدينة والدور الخاص جدًا الذي تلعبه في أفئدة المسلمين. فبالإضافة إلى طغيان اقتصاد السوق على مشاريع التوسعة والبناء والتسويق في مكة المكرمة وجرفها لكل ما أمامها من مبان تاريخية أو عاطفية وذكريات ألفية وأجواء روحانية تميزت بها المدينة وحرمها، فقد تسببت هذه الاندفاعة الاستثمارية الشرسة في انفصامٍ معرفي

وثقافي واجتماعي هائل ناجم عن التعارض الواضح والشديد بين مبادئ السوق النيو ليبرالية والأسس الروحانية والزهدية لمناسك الحج ومراميه ولمعنى مكة الإسلامي التعبدي الشامل. فهنا نحن أمام نموذج جديد من المستهلك؛ «المستهلك للمقدس»، الذي تغريه شركات الاستثمار بالاستهلاك عن طريق تلاعبها ليس فقط برغبته بالراحة والانشراح والمتعة كما تفعل عادة، بل أيضًا باستهلاك البعد الروحاني للمدينة المقدسة ذاتها عن طريق الصلاة في غرفة مكيفة مطلة على الحرم في فندق أبراج البيت مثلاً من دون الحاجة إلى تكبد عناء النزول والاختلاط بملايين المصلين الطائفين. وقد ساهم بعض فقهاء السلطة بتعبيد الطريق أمام هذه النظرة الاستهلاكية المسخ بإصدارهم فتاوي بصلاح الصلاة في الغرفة المجهزة بنافذة جدارية كما لو كان المصلي يصلي فعلاً في الحرم كما يبين عبد الرءوف. والأمثلة كثيرة على هذا النوع من التحالف بين مصالح رأس المال السعودي و«فقه البادية»، كما يقطلق عليه أحيانًا، وهذا مما يسلط عليه الضوء كتاب علي عبد الرءوف الذي هو بنهاية الأمر نذيرٌ محبٌ يدق ناقوس الخطر، وإن كان بعد فوات الأوان كما يبدو.

ناصر الربَّاط

«ما وراء الشرق المعروف لدى الأوربيين، هناك بعيدًا في قلب الجزيرة العربية، في غموض الصحاري العميقة وأسرارها، المحيطة بها، توجد المدينة الإسلامية المقدسة: مكة، حيث تختفي في قاعِ وادٍ بري مطوَّق بسلسلتين من جبال حادة وقاحلة، كما لو شاءت الطبيعة أن تتواطأ مع الإيمان الإسلامي، لتُخفِي عن أنظار غير المؤمنين أسرارًا محفوظة بعناية».

رحلة إلى مكة

(جول جرفيه كورتيلمون)

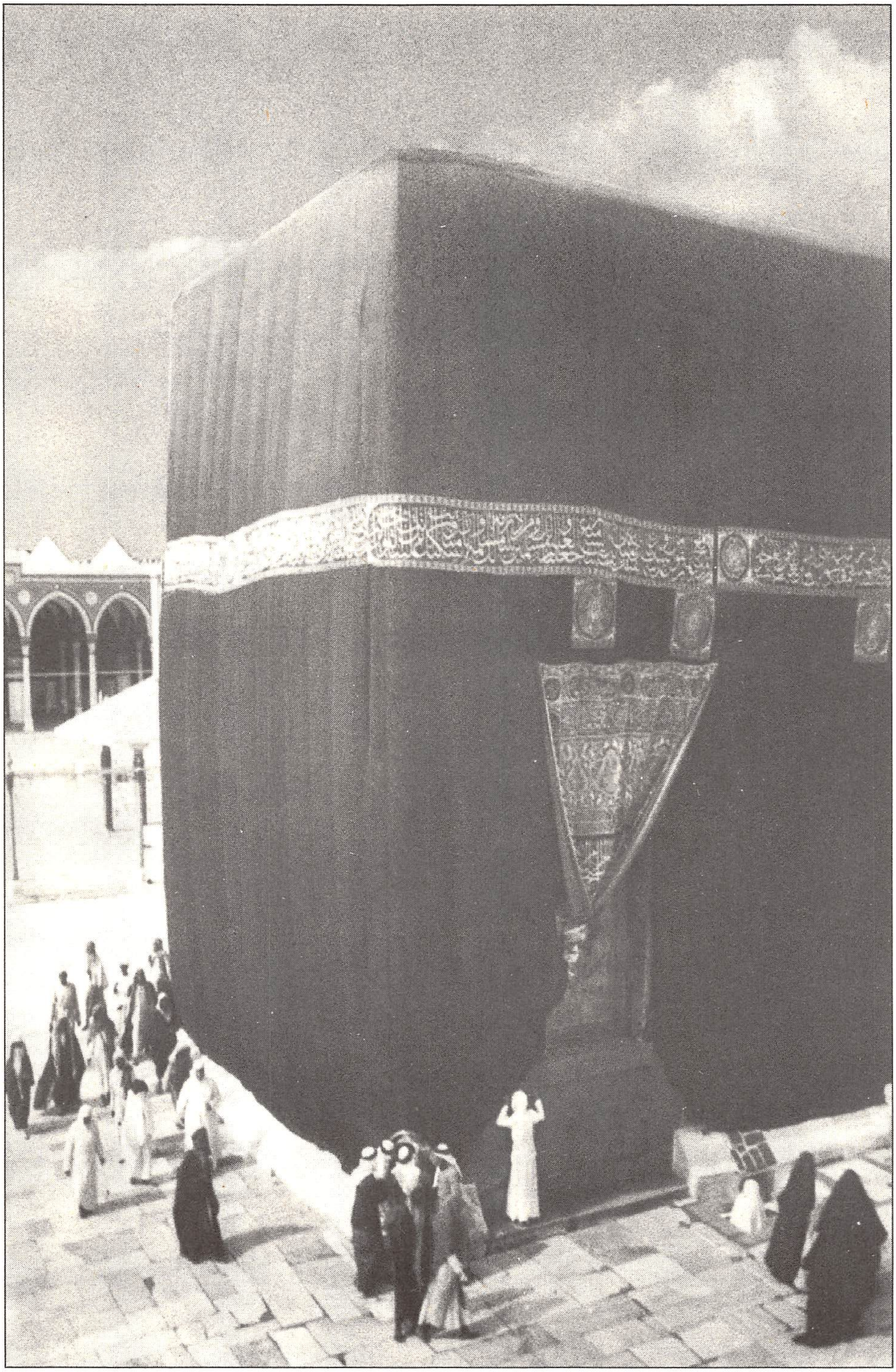

تصدير

يأتي هذا الكتاب في إطار مشروع منهجي بدأته عام ١٩٩٦، واعتمدت فيه على إعادة صياغة دور النقد المعماري والعمراني ليتحول إلى أداة كاشفة ومحلّلة ومستشرفة، ليس فقط للقضايا المعمارية والعمرانية، بل يمتد ليشمل علاقة البيئة المبنية مع كل تحديات وإشكاليات السياق الاجتماعي والإنساني والثقافي والاقتصادي وحتى العقدي. فمن الواضح جليًا لكل مراقب للحركة المعمارية والعمرانية والثقافية في العالم العربي أن المكوّن النقدي آخذٌ في التضاؤل، بل أحيانًا نجده يتلاشى تمامًا من حركة الممارسة والتطوير والتغيير في البيئة المبنية. يضاف إلى هذا إدراكي بأن العملية النقدية والعملية الإبداعية وجهان لعملة واحدة، وأنه - بكل بساطة ومباشرة - لا يمكن أن تستعيد الدولُ العربيةُ والمجتمعاتُ الإسلاميةُ دورَها الإبداعي في الحركة المعمارية والعمرانية المعاصرة دون تفعيل حتمي لمنظومة نقدية مخلصة تختبر بمصداقية ما يضاف إلى عواصم بلاد المجتمعات الإسلامية ومدنها وقُراها ومستقراتها.

على جهة أخرى، فإن الكتاب يحمل عنوانًا صادمًا، بل قد يكون مرفوضًا تمامًا للجموع المتعاطفة مع مكة المكرمة العاصمة المقدسة، بحيث يدعوهم إلى رفض كل ما يليه من الكتاب. فالقارئ لا يتخيل إمكانية أي ربط على الإطلاق بين أطهر بقعة في العالم لجموع المسلمين: مكة المكرمة، المدينة المقدسة وقبلة المصلين، وبين مكان ارتبط بكل الخطايا والموبقات وهو مدينة لاس ڤيجاس الأمريكية. تتكون السيمفونية الصوتية للمكان الأول من ترتيل آيات القران الكريم ورفع أذان الصلوات الخمس وإقامتها وترديد الألسنة بالدعاء في هذا السياق الروحاني الفريد. أما المكان الآخر فتنبع إيقاعات موسيقاه من خليط جنوني بين تصادم الفيشات وأقراص النرد وبين صرخات فرحة المقامرين الفائزين وحسرة الخاسرين.

إن مكة مهد الإسلام، وهي المدينة التاريخية المقدسة التي ولد بها النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. هي المدينة التي من قلبها تدفقت المياه من بئر زمزم لتروي

عطش السيدة هاجر، زوجة النبي إبراهيم. مكة هي القبلة، اتجاه الصلاة لقرابة مليار ونصف المليار من المسلمين حول العالم. وكل عام يتوجه الحجَّاج من كل أرجاء العالم، إلى المدينة المقدسة لأداء مناسك الحج. أما مكة من حيث الحجم والتأثير الإقليمي والعالمي، فإن الحج هو بالقطع أعظم حدث احتفالي روحاني عقدي ليس فقط في الإسلام بل في كل الديانات. إنه الطقس الذي يستكمل أركان العقيدة الإسلامية لكل مسلم بالغ من قرابة خُمس سكان العالم الذين يعتنقون الإسلام، ويدركون قيمة الحج المُتمّ لأركان إسلامهم وإيمانهم وخضوعهم لأوامر الله. الحج هو دفعة إيمانية فريدة، والنَاس غالبًا ما تتحوّل حياتهم بعد هذه التجربة.

وعلى الرغم من تعدد القضايا التي تناولتها في كتاباتي ومقالاتي المنشورة، فإن هذا الكتاب يمثل بالقطع انتقاله نوعية في اجتهادي لتفعيل العلاقة بين المناهج النقدية والبيئات المعمارية والعمرانية. فإن القضية المعمارية والعمرانية في هذا الكتاب ترتبط بأقدس بقاع الأرض على الإطلاق عند المسلمين الذين يشكّلون أكثر من سُبع سكان العالم. يرتبط بالمدينة المقدسة: مكة المكرمة، التي يصعب وضعها في لفيف واحد مع المدن والبيئات العمرانية التي تخضع كل محاولة لتطويرها أو تخطيطها أو تنميتها إلى مستويات متعددة من النقد والتحليل. أما في حالة مكة فان الإطار المقدس للمدينة انسحب خطأ على تنميتها ومخططات تطويرها، بحيث أصبحت صياغة أطروحات نقدية لها عملاً صعبًا إن لم يكن مستحيلاً. ففي حالات متعددة قد يُفسَّر نقد ما يحدث في مكة أو المدينة المنورة بأنه جهد هدَّام يهدف إلى الإساءة إلى الإسلام ومعتقداته وسياقاته المقدسة. أو أنه ظلم لجهود جبارة تقدمها الحكومة السعودية لتسهيل تأدية شعائر الحج. إلا أن هذا بالضبط هو جوهر القضية. فلا يمكن لمنصف أن ينكر الجهد الجبار وبلايين الدولارات التي تخصصها المملكة السعودية لتحقيق ما يوصف عادة بأنه «البيئة الآمنة والمريحة» للحجَّاج التي تتضمن أوجه الإنفاق والرعاية الطبية والإسعاف الأرضي والطائر والمواصلات بأنواعها والمطافئ ومدن الخيام غير القابلة للاشتعال وأنظمة المراقبة، وغيرها من الخدمات التي تحقق البيئة المنشودة الآمنة المريحة لتسهيل مقام الحجَّاج في الأراضي المقدسة. والمراقب المنصف يدرك أن هذه المشاريع الإنمائية تتطلب الكثير من جهد الحكومة ورأس المال لإظهار أنها مشروعات غير هادفة للربح،

وأنها مشروعات تُبنَى في الواقع من أجل تحقيق «الراحة والسلامة» للحجاج، وهي الحجة التي يكثر ترديدها. ولكننا ننتهي بحقيقة أن أحدث معلم في مكة المكرمة، هو «بيغ بن الإسلامية» وهي ساعة تُزيَّن مع الهلال الذهبي، وشعار المملكة السعودية في المركز، وعبارة «الله أكبر» بالخط العربي على الحافة العليا، بالإضافة إلى أبراج البيت وفندق فيرمونت العملاق. والأخير مثال شاهد لجميع مشاريع التنمية الفانتازية التي سوف تساهم في حالة الاختناق العمراني ومن ثم الروحاني للمسجد الحرام والكعبة الشريفة. فهذه الساعة التي كُلِّفَت ٨٠٠ مليون دولار، هي رمز الرأسمالية البترولية بامتياز. ولكن دائمًا يبقى التساؤل الأكبر حول هذا العمل! فإلى جانب أهمية أن تكون بيئة الحج آمنة ومريحة فهي بالمقام الأول يجب أن تكون تجربة روحانية ومقدسة. ولكن الشواهد المرصودة توضح أن مكة المكرمة التي كانت يومًا من الأيام واديًا قاحلاً يستقطب الحجاج في رحلة روحانية تطهيرية، قد تحوّلت إلى نطاق تجاري استثماري استهلاكي محوط بالفنادق الفاخرة وناطحات السحاب الشاهقة ومراكز التسويق العالمية.

كيف يمكن ناقدًا أو باحثًا طرحُ مقارنة بين المدينة المقدسة ومدينة الخطيئة Sin City وهو اللقب الذي اشتهرت به لاس فيجاس، المدينة القابعة في عمق صحراء ولاية نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية. الواقع أن فكرة الكتاب هي تجاوز لهذه الرؤية التقليدية للتمييز ما بين المقدس والمدنس، وتقديم قراءة مغايرة مهما كان حجم ما تثيره من أحزان وأشجان وألم.

البداية:

رباعية من الصدمات

صاغت فكرةَ هذا الكتاب وبلورت اشكالياته النقديةَ مجموعةٌ من الصدمات العقدية والروحانية والفكرية وكذلك العمرانية والمعمارية والتنموية التي تعرض لها المؤلف خلال عقدين من الزمان. وهذه الصدمات الأربع التالية، والتي اختبرتها ذاتيًا، هي المساهم الأكبر في إصراري على الاستمرار في مشروع الكتاب وصياغة إطاره النقدي.

كانت صدمتي الأولى عندما أعانني الله على أداء العمرة للمرة الأولى في حياتي. قبل رحلتي، تلقيت من جدي، رحمه الله، نصيحة هامة عن كيفية الدخول إلى صحن الكعبة. ملخص النصحية أنه من لحظة دخولي أحد أبواب الحرم المكي، فمن الواجب النظر إلى الأرض، إلى موقع قدميك، وأن تمشي بهدوء وتواضع متوجهًا إلى صحن الحرم. تستمر سائرًا في اتجاه الكعبة ناظرًا لأسفل حتى تدخل فناء المسجد. هنا فقط ترفع رأسك لترى الكعبة للمرة الأولى فتحتويك الكتلة السوداء المقدسة المهيبة، بيت الله الحرام. فعلت ما أوصاني به جدي، رحمه الله، حرفيًا، ولكنني عندما رفعت رأسي لأرى الكعبة، لم أنجح أن أُخرِج من مجالي البصري تلك الأبراج الخرسانية ومجمعات الإقامة العالية وأوناش البِناء المتقافزة. شعرت بان أجواء القداسة التي غمرتني ومهابة الكعبة وبهاءها بكتلتها السوداء الآسرة للقلوب والأرواح، يتنافس معها إطار دنيوي رخيص يمزق هذه الأجواء الروحانية، ويشتت البصر والبصيرة.

ثم شاءت الأقدار أن أحظي بزيارة البيت الحرام، مرة أخرى، وهنا كانت صدمتي الثانية. فقد سعدت عندما تذكرت نصيحة جدي مجددًا. وهكذا اقتربت مرة أخرى ناظرًا لأسفل حتى نزولي إلى صحن المسجد. في هذه المرة عندما رفعت رأسي لأنظر إلى الكعبة أملاً في أن أسترجع تجربة روحانية أتوق إليها، شعرت بالضآلة والقلة بل بالمهانة الإنسانية والعقائدية. كانت صدمتي الثانية عندما شوش مجالي البصري تمامًا

الكتل الخرسانية الأسطورية لأبراج متوحشة، تم تسميتها أبراج البيت، تشق السماء بقسوة يتراجع معها كل شيء ويصغر ويتضاءل ويُهمَّش، بما في ذلك الكعبة ذاتها.

الصدمة الثالثة كانت في زيارتي لدولة الڤاتيكان، والمقر البابوي وكنيسة سان بيتر الشهيرة، حيث يكتنف المحيط كله جو روحاني فريد. كما تتضاءل كل السياقات المحيطة لتصبح الكنيسة وملحقاتها وساحتها الأمامية الكبرى هي العلامات الفارقة في المحيط البصري للمكان أو بالأحرى للدولة الصغيرة. ومن أعلى القبة، التي صعدت حتى قمتها مستخدمًا السلالم الحجرية الصغيرة التي تتحرك بلولبية ملاصقة للسطح المنحني للقبة وصولاً إلى نهايتها، حيث شاهدت المحيط العمراني للڤاتيكان وروما يخضع خضوعًا مقدسًا لقبة الكنيسة وشرفاتها ونافذة إطلالة بابا الڤاتيكان الشهيرة. هذا الخضوع لا يمكن أن يتحقق لا بادراك شعبي ومؤسسي لان هذا المكان له طبيعة مقدسة تتجاوز أي إطار دنيوي ربحي قد يغري البعض باستغلاله وتغييره وتشويه أجواءه الروحانية المقدسةً لجموع المسيحيين.

ثم كانت صدمتي الأخيرة المنبِّهة اللافتة حين ذهبت إلى مدينة لاس ڤيجاس الشهيرة بولاية نيفادا، إحدى ولايات الجنوب الأمريكي، لحضور مؤتمر يناقش قضايا دولية في مجالات العمارة والعمران. وفي أثناء تحركي واستكشافي للمدينة، وجدت نفسي أكثر من مرة متورطًا بصريًا وعاطفيًا وذهنيًا ونقديًا، في عقد مقارنات بين المدينتين: مكة المكرمة المقدسة مهد الدين الإسلامي ومولد الرسول الكريم وقبلة المصلين والحجَّاج، ولاس ڤيجاس المدينة المدنسة قبلة المقامرين، أو مدينة الخطيئة كما يحلو لمرتاديها أن يلقبوها. ومن قسوة المقارنة أجبرت نفسي على تحويل انطباعاتي وملاحظاتي ومشاهداتي إلى عمل بحثي مطول، حيث شرعت في تحليل آليات البناء والتنمية في المدينتين، وكذلك قيمة الأراضي وأولويات الاستثمار ومفاهيم العمارة والعمران التي تتبناها المدينتان.

في هذا الكتاب أقدم للقارئ أطروحة تؤصِّل لفكرة العمارة المقدسة الروحانية وملامح العمران الذي يتوافق معها ويحوطها ويحميها ويضيف إلى مضمونها. كما أُخضِع منظومة التنمية في مكة المكرمة، وخاصة في نطاق الحرم المكي، لمجموعة من

الاختبارات في مجال التنمية، ومنها اختبار فرضية التشابه، بل أحيانًا التطابق بين مناهج وآليات التنمية العقارية والاستثمار المتبعة في المدينتين: مكة المكرمة ولاس ڤيجاس. إن مكة المكرمة وكذلك المدينة المنورة هما مدينتان بهما مركزان من أكثر مراكز القداسة والروحانية في العالم؛ الكعبة ومسجد الرسول ﷺ وضريحه. ولذلك فان المدينتين يستحقان منهجًا مميزًا ومبدعًا للتعامل مع إشكالياتهما التنموية والعمرانية. منهجًا لا ينبع بالقطع من منظور استثماري مادي ضيق يرى النجاح فقط في المعايير الكمية، وخاصة القدرة على استيعاب وزيادة استيعاب الراغبين في أداء العمرة ومناسك الحج وزيارة مدينة الرسول ومسجده. وإنما يقدم فهمًا للقيمة الروحانية المقدسة التي لا يجب أن تتوارى أبدًا أمام ضغوط رغبات جامحة للثراء اللانهائي، والأطماع المادية التي تتناقض مع أطهر بقاع الأرض.

●●●

الفصل الأول:

مكة المكرمة: تاريخ المكان وقداسة العمران

«إن مكة هي أحب بلاد الله إلى الله»

محمد رسول الله ﷺ

تمهيد

يقدم هذا الفصل فهمًا لتاريخ مدينة مكة المكرمة من المنظور العمراني والتخطيطي، ويحاول تفسير السياق العام للمدينة، ونشأتها وتطورها. تمهيدًا لربط هذا السياق مع التحولات العمرانية والتخطيطية التي شهدتها وتشهدها المدينة خاصة في العقدين الأخيرين. ويحلل الفصل القيمة المعنوية الروحانية للمدينة، والى أي مدى أثرت هذه القيمة على تكوين شخصية مكانية خاصة وعبقرية جغرافية متمايزة.

كما يستعرض الفصل -في إطار تحليلي- ذلك الجهد المبذول، الذي يستحيل إنكاره، من قبل السلطات السعودية لتسهيل أداء مناسك الحج في مشروع التطوير والتحديث المستمر. منذ بدء هذا المشروع ورغبةً من الحكومة السعودية في استيعاب المزيد من الحجاج كلَّ عام، حيث فاقَ عددُهم في السنوات الأخيرة ثلاثة ملايين حاجّ، فقد حشَدت المملكة كُلَّ إمكاناتها الماديَّة والبشريَّة لتَطوير مَشاعر الحج، وتَوفير كافَّة التَّسهيلات اللازمة لخدمة الحجيج. وإجمالاً، فإن التَركيز ينصَب على تطوير وتحديث المَرافق العامَّة من شبكات مياه الشرب والإضاءة الشاملَة، وإنشاء دورات مياه، ومراكزَ إسعاف وطوارئ ورعاية طبية، وإقامة شبكة مَن الطُّرُق والشوارع الفسيحة التي تتخلَّلها الجسور والمعابر والأنفاق الضَّخمة لتَخفيف الازدحام الشديد خلالَ مَوسِم الحج، ولتَنظِيم حركة المرور بين مكَّة والمشاعر المَقدَّسة في عرفة ومِنى ومُزدلفة.

لكن الفصل يطرح جانبًا إضافيًا وجوهريًا لمفاهيم تحديث مدينة مكة المكرمة ونطاق الحرم المكي وتطويرهما. فالتطوير لا يجب أن يتغاضى عن قيمة المدينة الروحانية المقدسة أو أن يسيء إليها أو يقلل من قيمتها. حيث تتمتع مكة المكرمة بمكانة مقدسة منذ القدم، وهي تستمد قدرها وقيمتها من الحرم المكي الذي تتوسطه الكعبة، بيت الله الحرام. إن القيمة العقدية لمكة المكرمة تم نقاشها بصورة موسعة في عشرات بل مئات الكتب والمراجع الموثقة. إلاَّ إنَّ هذا الفصل ينسج من خلال مراجعة الأدبيات المنشورة ومن خلال تحليل أهم المخططات التنموية الرئيسية لمكة المكرمة؛ محاولة لفهم تاريخ

التواصل بين قيمة المدينة الروحانية وما حدث خلالها من تطورات ومشروعات ومخططات.

مكّة المكرّمة: سرد التاريخ المقدس

تمثل مكة المكرمة حالة فريدة في المستقرات الإنسانية التي عُرفت في السياق الإقليمي العربي، أو حتى على الصعيد العالمي. فتاريخ المدينة، خلافًا لمعظم مدن العالم ومستقراته، لا يأتي من تراكم إنساني تاريخي حضاري فقط، بل تُميزه أيضًا قيم قداسية روحانية نادرة ترتبط بنشأة وتطور واحد من أعظم الأديان وأكثرها انتشارًا: الإسلام. مكة المكرمة هي مهبط الوحي وملتقى الشعوب الإسلامية كلها، حيث تتطلع قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إليها ليشرفُوا بأداء مناسك الحج والعمرة. وقد نالت هذه المدينة أعظم التقدير وأقدسه، حيث أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وبأكثر من اسم، وذلك لأهميتها وفضلها وعظيم قدرها عند الله تعالى. وفي العقيدة الإسلامية يمثل الحج إلى مكة الركن الخامس من أركان الإسلام، فهذه المدينة تتربع في قلوب المؤمنين المتطلعين إلى استكمال أركان إيمانهم بلا منازع.

مكّة المكرّمة: المكانة التاريخية والروحانية

كانت مكَّة المكرَّمة عند العرب قبلَ الإسلام، من أبرز الأماكن الثقافيَّة والتجاريَّة، وأهم مدنهم قداسةً وعراقةً، وهي اليومَ، عند جميع المسلمين، إلى جانب المدينة المنوَّرة والمسجد الأقصى المُبارك بالقدس، ثالث المساجد في الإسلام من حيث القداسة أعظم مدينة وأهم الديار قدسيَّة في أرجاء المعمورة كافَّة، بعد أنْ أصبحت قبلة المسلمين التي يُولُّون وجوههم شطرها خمسَ مرَّات في اليوم والليلة عند أداء الصلاة، ويشدُّون الرحال إلى حرَمها الشريف «الكعبة المشرفة» من شتَّى أرجاء المعمورة.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وحين يبدأ موسم الحج كل العام، يلبي النداء مئات الألوف بل الملايين من المسلمين، يتدفقون من كل بقاع الأرض إلى المدينة المقدسة، يتجردون من كل شيء

حتى ملابسهم ويتفرغون إلى التقرب من الله تعالى. كما أن مكة هي مولد رسول الإسلام محمد ﷺ، ومنزل القرآن ومهد الإسلام. سمى الرسول ﷺ، سكان المدينة «أهل الله»، فيها تضاعف الحسنات، وصلاة في مسجدها الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه. كما وصفها الرسول ﷺ: «**إنّك لخير أرض وأحب أرض إلى الله**». رواه الترمذي والنسائي.

قصة الحرم المكي: الجذور التّاريخيّة للمدينة، قداسة المكان والزّمان

إنَّ مكَّة المكرَّمة تعدُّ واحدة من أعظم مدن الأرض وعواصمها مكانةً وشهرة، ولم تَحظَ أيُّ مدينة في العالم بمثل ما حَظيَتْ به مكَّة من تكريم، ويكفي أنَّ الله باركَها، وجعلَها أوّل مكّان يُعبَد فيه بداية من آدم عليه السلام. كما فضلها الله على غيرها من بقاع العالم طهراً وقدسية، وجعلَها قبلةً المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بعد أنْ أوحى الله لسيِّدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أن يُقيمَا بناءَ البيت مرَّة ثانية؛ ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٦]. ومهْما اختلَف المؤرِّخون والرُّواة وأهل العلم والدين، حولَ تاريخ ظهور مكَّة إلى الوجود، يَبقَى هناك اتِّفاق بينهم على أنَّ مكَّة المكرَّمة ليست عريقةً في القدَم فحسب، بل من أقْدم مدن المعمورة، وأنَّ البيت الحرام أعظم المساجد على وجه الأرض - هو أوَّل بيت وُضع لأهْل الأرض ليَعبُدوا الله وأنَّ واضعَ حجر الأساس لمدينة مكَّة الصغرى هو النَّبي إبراهيم - عليه السلام - لتصبح مدينةً آهلة في عهد قُصَي بن كلاب بن مرَّة بن كعْب بن لؤيّ، وفي عهد قُصَيّ شهدت مكَّة توسعة كبيرة، وعُني بتنظيمها خيرَ عناية، حتَّى أضحت في زمانه مدينةً عامرة مستطيلة المَساحة ذات شعابٍ واسعة (مقبل، فهمي. ٢٠٠٨).

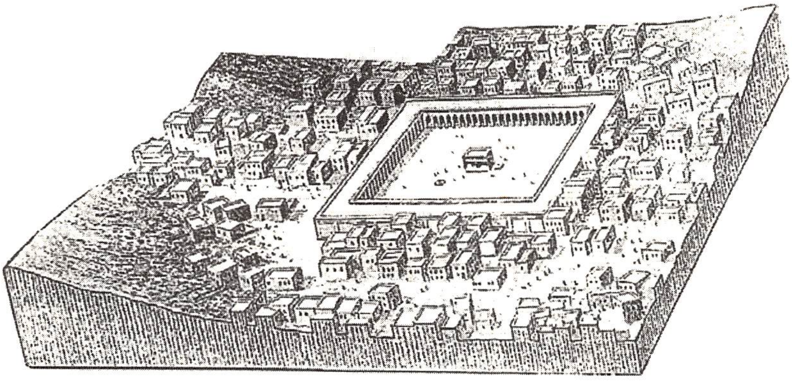

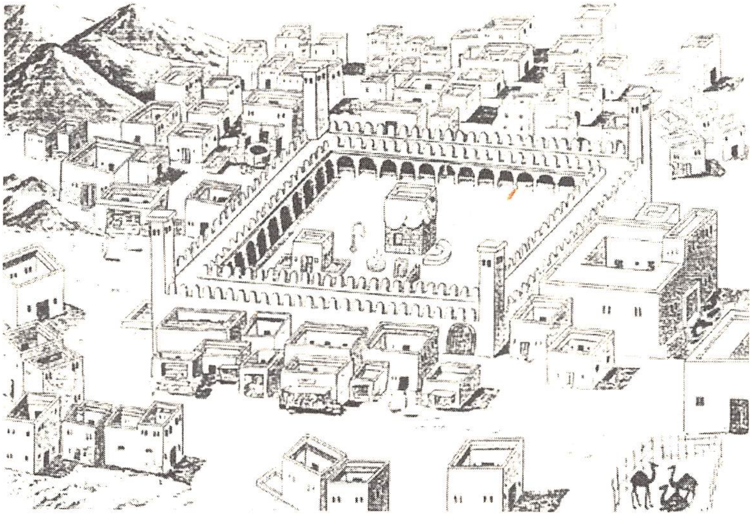

(١)

عمران مكة في بدايات الدولة الأموية، ثم أثناء حقبة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٩.

ظَلَّ بناء الكعبة على ما هو عليه حوالي عشرة قرون، بدون تغْييرات نوعيَّة، بعد عمارة ابن الزُّبير والحجَّاج. لكن يبرز أيضًا ما أجراه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م) بالمسجد الحرام من تَجديدات وإضافات كبرى. ويميز الخليفة الأُموي الوليد أنَّ عهده كان من أبْهَى عهود الخلاَفة الأمويَّة وأزهاها. ومن أهم تفسيرات هذا الازدهار هو حب الوليد للبناء والعُمران. ففي عهده أُعيدَ بِناء جامع

المدينة «الحرم النبوي الشريف» وشُيِّد الجامع الأموي في دمشق، ومسجد قبة الصخرة في القدس الشريف. كما أن الخليفة الوليد هو أوَّل مَن استحدث نموذج المستشفيات كتصنيف جديد من المباني في الحضارة الإسلامية يضاف إلى قائمة مطولة تبدأ بالمسجد وتضم الوكالة والخان والمدرسة والسبيل وغيرها من نماذج المباني التي ميزت عمارة المجتمعات الإسلامية وعمرانها. كما إن أعماله العمرانيَّة التي شيَّدها وزيَّن بها عاصمة الأمويين «دمشق» وبقية مدن الدولة وربوعها، تُعد من رَوائع الفن المعماري العربي الإسلامي العريق وآياته (السباعي، المرجع السَّابق، ج١، ص١٢٨ - ١٣٠).

من اللافت أنَّ الكعبة ظَلَّتْ على البناء الذي رفَعَه (إبراهيم) عليه السلام حتى آلَت السِّيادة على البيت إلى (قُصَيِّ بن كلَاب) فبَناها من جديد، وأذنَ لطوائف قريش أنَ يبنوا بيوتًا حولَ الكعبة من جهاتها الأربعً، وهو ما يمكن أن يعد نَواة عمرانية لتشكيل المدينة. وقبلَ الهجرة النبويَّة الشريفة بثمانية عشر عامًا، تعرَّضت مكَّة إلى حريق مدمِّر تَزامَن مع سيل عرم أضر بالأساس الحجري للكعبة المشرَّفة، وأدى إلى تصدُّع جدرانها؛ ممَّا جعلَها آيلَةً للسقوط. قامت قريش على إثر هذا التضرر غير القابل للعلاج بهدمها وإعادة بنائهاَ. وهي قصَّة بناء قريش للكعبة، تلك القصة المشهورة، وقضيَّة التحكيم في الخلاف الذي نشب بين القرشيين فيمَن يكون له شرف وضع الحجر الأسود مكانه (عبد الغني، ص٤٢). حيث شارك النبي ﷺ، قريشًا وهو شابٌّ في نقل الحجارة (السباعي، ١٩٨٤م. ص: ٢٧). وكان رسول الله قبل نزول الوحي موضع تقديرهم لنسبه، وسموِّ أخلاقه حتى أنهم لقَّبوه بالصادق الأمين.

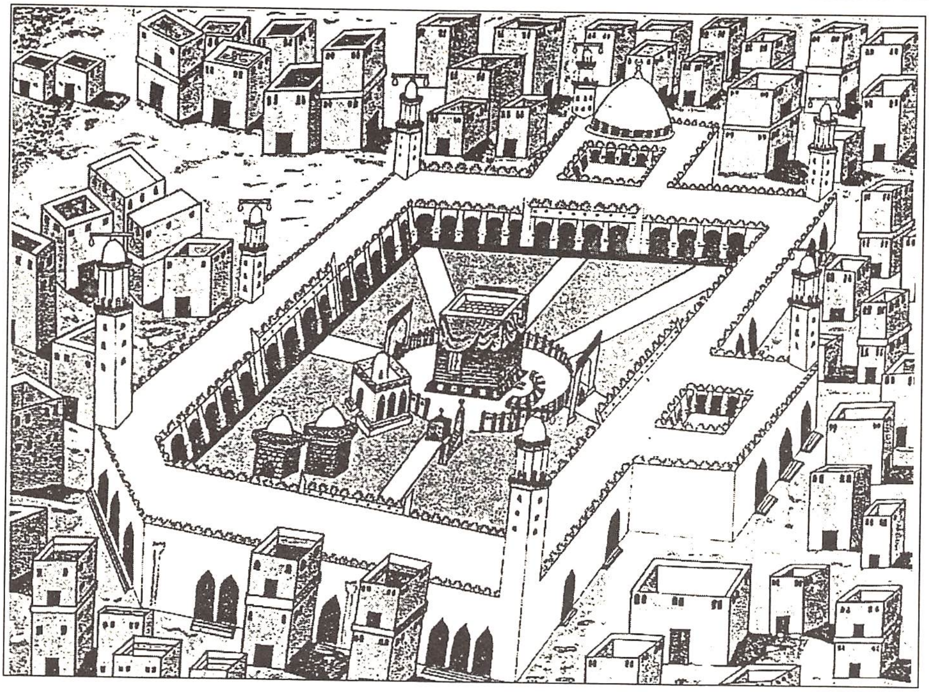

عمران مكة خلال حقبة الخليفة العباسي المهدي (٧٧٧-٧٨٠).

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

تحول الوادي القاسي الجاف إلى بقعة مفعمة بالحياة، عندما استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء (إبراهيم) عليه السلام وتفجرت بئر زمزم تحت قدمي رضيعه. هذا البيت، ابتدأت الملائكة بناءه، ثم (آدم) عليه السلام، ثم ابنه (شيث)، ثم (إبراهيم و(إسماعيل) عليهما السلام، ثم العمالقة، ثم جُرهم، ثم (قُصيّ بن كلاب)، ثم قريش، ثم (عبد الله بن الزبير) عام ٦٥، ثم (الحجَّاج بن يوسف الثقفي) عام ٧٤، ثم السلطان (مراد) العثماني عام (١٠٤٠م)، ثم قام الملك (فهد بن عبد العزيز) رحمه الله عام ١٤١٧، بتوسعة كبرى للحرم، فأصبح ما هو عليه اليوم.

مكة المكرمة؛ أم القرى تتميز بكونها واديًا غير ذي زرع، ذا مياه قليلة، وبيئة طبيعية صعبة التشكيل، قاسية الظروف ومحدودة الموارد. وقد تأثرت المنطقة بهذه الخصائص فكان نموها متأثراً بمكان المسجد الحرام ومكانته، فتمركزت جميع الأنشطة البشرية حوله منذ القدم، وقد ساهمت التضاريس في احتواء النمو العمراني الذي لم يخرج عن إطار وادي إبراهيم عليه السلام، عبر مئات السنين. وعبر العصور، تأثر النسيج العمراني لمكة بالبيئة السياسية والاقتصادية السائدة، فقد تكونت البيئة العمرانية حول الشرايين الأساسية التي مرت خلال الوديان إلى المنطقة الوسطى. وكانت تلك الطرق المؤدية إلى المسجد هي باب المعلاة في الشمال، وباب العمرة في الغرب، وباب المسفلة في الجنوب. وجدير بالذكر أن عمران المنطقة المركزية تأثر بالتوسعة خلال فترة الحكم العثماني في الفترة من (٩٢٣-١٣٣٦هـ)، حيث ظهر الاهتمام بالمسجد الذي تبلور في توسعته والاهتمام بساحته المركزية (عيسى ١٤٢٢هـ).

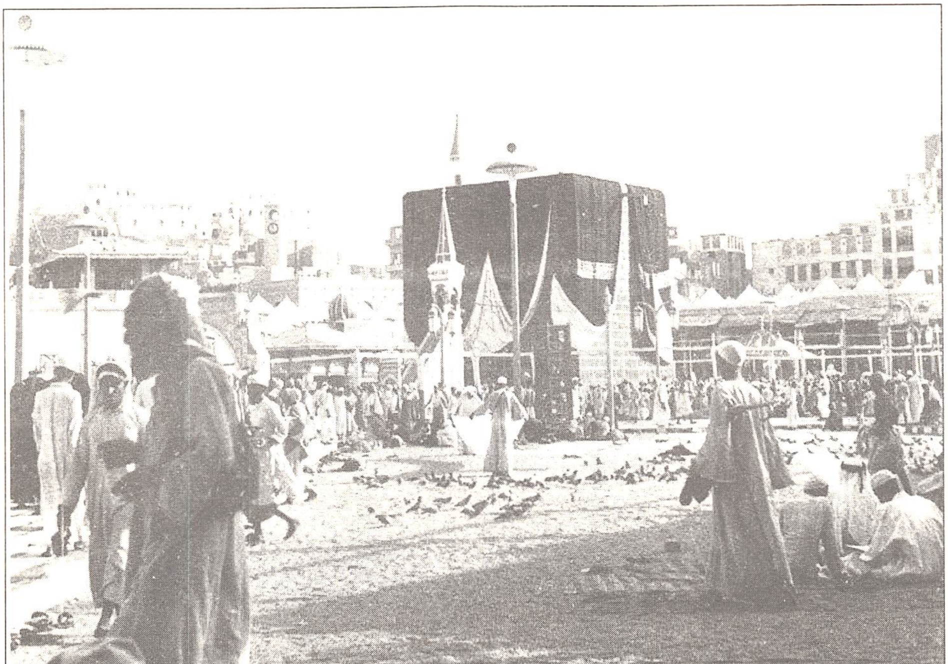

بساطة أجواء مكة في القرن الماضي، والكعبة الشريفة بؤرة الفراغ العمراني وانخفاض المباني عن مآذن الحرم.

بلورة النسيج العمراني حول مكة المكرمة

شكّلت الكعبة نقطة المركز، وبؤرة النمو العمراني الذي تبلور في تشكيل دائري يستجيب لمركزية الكيان الأهم في هذا النسيج العمراني وهو البيت الحرام. وقد ظلت مكة لأعوام طويلة تحتل مساحة لا تزيد عن نصف كيلو متر مربع حول الحرم، وتحيط بها أسوار لحمايتها والدفاع عنها ومن عام (١٠٠٠ - ١٣٤٣م) خضعت مكة للحكم العثماني. وبدأ يظهر نسق عمراني معماري جديد فيها أو بالأحرى على جبالها المحيطة وهو القلاع. حيث استغلت المواقع الاستراتيجية لقمم جبالها لبناء مجموعة من القلاع للدفاع عنها وتحقيق الحماية لزوار بيت الله من المغيرين. ومن أهم تلك القلاع التي بنيت في العصر العثماني، قلعة أجياد التي ستتعرض لها في فصول قادمة، وخاصة دراما هدمها الكامل لإفساح المجال لتنمية عقارية غير مسبوقة الحجم والارتفاع.

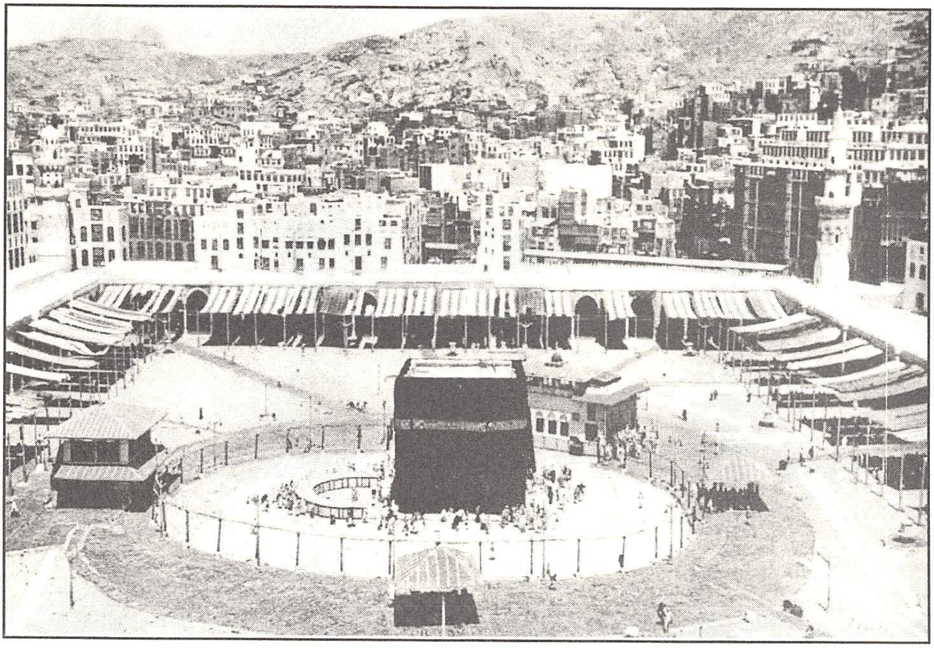

الحرم المكي في أول صورة ملونة نشرت عام ١٩٥٢. نلاحظ هنا بوضوح بساطة العمارة والعمران، وتناسق اللغة البصرية للمكان، ووضوح الجبال المحيطة التي تساهم في إضفاء البعد الروحاني للنطاق المكي ككل.

وقد تخللت أسوار مكة ثلاثة أبواب أولها باب المعلاه المؤدي إلى المقبرة، ثم باب المسفلة المؤدي إلى الجنوب، وأخيراً باب الشبيكة المؤدي إلى الغرب. وكانت المناطق المنخفضة نسبيًا في الساحات المحيطة بمكة تسمى البطحاء، وكل ما نزل عن الحرم يسمونه المسفلة، وما ارتفع يسمونه المعلاة. كما كانت شوارع مكة ضيقة غير منتظمة عدا شارعها الرئيسي الذي يقطعها من جنوبها الغربي إلى شمالها الشرقي، وهي تتماثل في تلك الصفات العمرانية مع معظم المدن الخليجية والعربية التي تميزت ببساطة وفطرية العمارة والعمران وانعكاس قيم ثقافية وكذلك مرجعيات دينية على الكيفية التي يتم من خلالها صياغة بيئتها العمرانية.

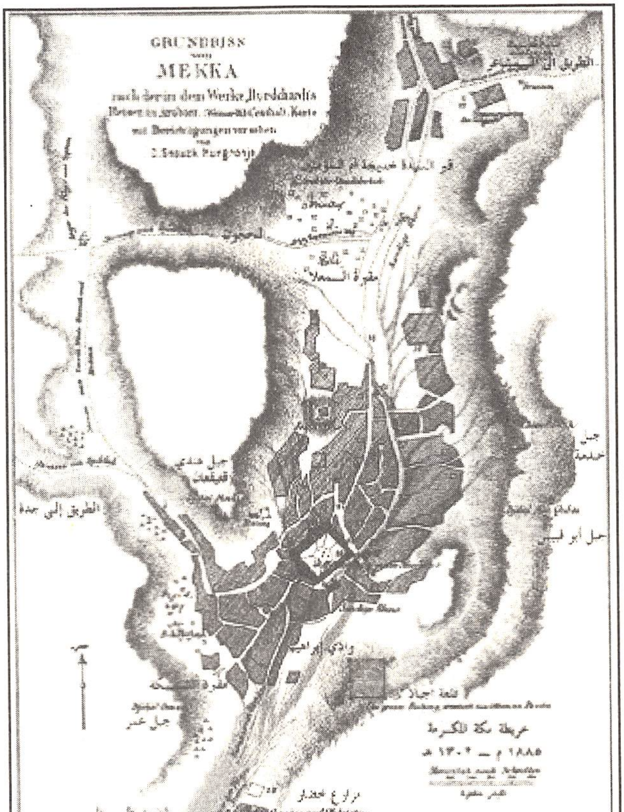

خريطة مكة المكرمة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري

المصدر: التكوين المعماري والحضري لمدن الحج بالمملكة العربية السعودية. صفحة ٥٩

الإطار الجغرافي لمكة المكرمة

تتميز مكة المكرمة بموقع جغرافي خاص يتوافق مع قيمتها المقدسة، ويكثف عبقها الروحاني. والواقع أن هذا الموقع هو جزء من شخصيتها المكانية المتمايزة وتميزها الروحاني، وخاصة من حيث شبه انعزالها الذي يتحقق للوادي المحاط بالجبال. إن الله عز وجل قد اختارها في منطقة لا تشقها الأنهار، ولا تقع على ممرات مائية تجارية، ولا ترتبط بمراكز تحكّم جغرافى، كما هو الحال فى معظم المراكز العمرانية التاريخية. فهي تقع داخل واد يحيط به سبعة جبال أهمها جبل عمر وجبل خندمة. وتعتبر كل الجبال المحيطة بمكة المكرمة نطاقات مقدسة شاهدة على أحداث فاصلة في تاريخ نشأة الدعوة الإسلامية، ونضال محمد ﷺ، لنشرها والدفاع عن معتنقيها. فجبل النور مثلاً، وهو الواقع في الشمال الشرقي لمكة، به غار حراء الذي اعتاد رسول الله الاعتكاف به حتى تلقى الرسالة الأولى من القرآن الكريم (نجيم، ص٨٩). أما جبل ثور في جنوب مكة، فيقع به غار ثور الذي احتمى به الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضى الله عنه، عند هجرتهما من مكة إلى المدينة هربًا ممن كانوا يلاحقونهما من صناديد قريش الذين أعجزهم الله عن الدخول إلى الغار. والجدير بالذكر أن كل هذه النطاقات المقدسة لم تُستوعَب أو تُدرك أهميتها في أي من مخططات تطوير مكة المكرمة وتوسعتها. بل وصلت قسوة القرارات أحيانا إلى إزالة بعض هذه الجبال مثل جبل أجياد الذي كان يرتفع إلى ٤٠٦ متر وتعلوه القلعة التي عرفت بنفس الاسم (نجيم، ص ٩٢)، حيث أزيلا بالكامل، ليُمهَّد الموقعُ لتنفيذ مجموعة عملاقة من الأبراج الفندقية التي سيُفرد لها مجموعة من التحليلات النقدية في الفصول التالية من الكتاب.

وبصورة أكثر تفصيلاً، تقع المدينة المقدسة وسط تكوينات صخرية تسمى بالتلال والجبال الساحلية، ما بين السهل الساحلي على البحر الأحمر غربًا وجبال السراة المرتفعة شرقًا. وهذه التلال عبارة عن جبال وتلال متقطعة توازي في امتدادها السهل الساحلي، وقد تكونّت بفعل عوامل التعريَة ما أدّى إلى زيادة تعقيد سطحها حيث تتسم بالقمم الحادة والوديان الفسيحة العميقة كما تُعد مكة جزءاً من الدرع العربي الذي يُشكِّل غرب شبه الجزيرة العربية وأجزاءً من وسطها، ولذا فان أرض مكة تتكون من

الصخور النارية والمتحولة التي يتكوّن منها الدرع العربي، وهي ضمن المنطقة المدارية الحارة ذات المناخ الصحراوي الذي يسوده ارتفاع درجات الحرارة أغلب أيام السنة. ومكة تستقر في عمق واد هو وادي (إبراهيم)، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي على شكل دائرة حول الكعبة. ويختلف ارتفاع الجبال المحيطة بمكة اختلافًا كبيرًا، ويتراوح مستوى السطح بين ٢٤٠ م فوق مستوى سطح البحر عند بداية وادي إبراهيم من الجنوب و قرابة ٩٢٠ م عند قمة جبل الأحدب شمال مزدلفة إلى الشرق من مدينة مكة.

وعلى مستوى العلاقات الإقليمية فمن جهة الغرب وعلى بعد ٧٣كم من مكة، تقع، بإطلالة مباشرة على ساحل البحر الأحمر مدينة جدة. ومن جهة الشرق تقع مدينة الطائف على مسافة مقاربة. وهذا ما يفسر أن مكة كانت همزة وصل بين الأقاليم الواقعة في الجنوب منها، والأقاليم الواقعة في الشمال. ويقع المسجد الحرام والكعبة المشرفة في مركز هذا الوادي. ولذا، فإنه على مر العصور تميزت مكة المكرمة بالأمن والأمان النسبي مقارنة بالعديد من المستقرات والمستوطنات الأخرى في شبه الجزيرة العربية. ويعود هذا، فى المقام الأول، إلى مكانتها الدينية، ثم موقعها التضاريسي. إذ تحيط بها الجبال من كل جانب إلا من ثلاثة منافذ، فهي أشبه بمدينة محصنة بسور عظيم له ثلاثة أبواب. المنفذ الأول للقادم من جهة اليمن، والثاني للقادم من ميناء جدة، والثالث للقادم من بلاد الشام.

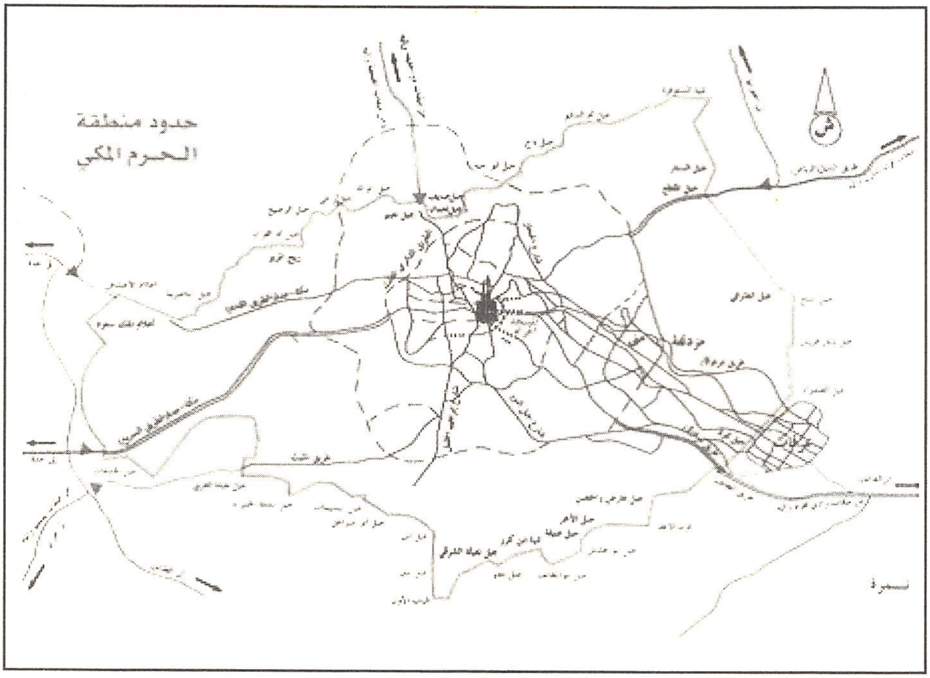

إذن تُجسِّد مكة المكرمة بموقعها المركزي في كوكب الأرض، الجغرافية المقدسة للإسلام، كما أنها كانت مكانًا نابضًا بالحياة ومركزًا للإشعاع الروحي والمعرفي. إلى جانب قيمة مكة كموقع لأحد شعائر الإسلام، وهو الحج، علينا أيضًا أن ندرك، أو بالأحرى، ألا نغفل عن أهميتها الاقتصادية والفكرية والمعرفية على مدى التاريخ. هناك أيضًا حقيقة أن أعظم جغرافيّي العالم عرفوها وكتبوا عنها، ومنهم عالم الفلك الإغريقي بطليموس الذي ذكر مكة في القرن الأول الميلادي باسم «ماكورابا». وإلى جانب أهميتها الجغرافية شغلت مكة موقعًا مهمًا في إنتاج المخطوطات منذ ظهور الإسلام، فالمصاحف وكتب التفسير وأعمال أخرى هامة مثل كتاب «فتوح الحرمين» غالبًا ما كانت تنسخ هناك. ومن المؤكد أن مكة كانت مركزًا معرفيًا جذب الناسخين الراغبين بإضفاء الشرعية على إنتاج المخطوطات المنسوخة في المدينة المقدسة.

لا ريب أنَّ مكة المكرمة أدَّتْ قبل الإسلام، دورَ الوسيط الناجح والمُحايد بين عالَمين، فموقعها الجغرافي من ناحية، وحفاظها على حياديَّتها من ناحية أخرى، حقَّقا لها مكانةً عظيمة في هذا الميدان الاقتصادي، ويكفي دليلاً على ذلك أنَّ الإمبراطوريَّة

الرومانيَّة الشرقيَّة، استعانت بتجّار مكَّة الكبار من القرشيِّين، كوسطاء أُمناء للتجارة، بنقْل مُنتَجات الهند والصين إلى أسواقها، كما أنه من الموثق تاريخيًا أنَّ القرشيِّين عقَدُوا المعاهدات التجاريَّة مع أُمَراء العرب في الجزيرة العربيَّة (مقبل، فهمي. ٢٠٠٨)، وكان لتجّار مكَّة في الوقت نفسه تجارةٌ رابحة مع الحبشة والصومال، تتمُّ بواسطة طريق بحري، حيث كان لمكَّة ميناء على البحر الأحمر يُعرَف بميناء الشعيبة، ولصلات أهل مكَّة التجاريَّة بالشعوب والقبائل والأُمم القريبة والبعيدة، ازدادوا وعيًا بأهميَّة التجارة البينيَّة والدولية مع تأثُّرهم واقتِباسهم للمَظاهِر الحضارية الاجتماعية والثقافية التي عرَفُوها من الروم والفرس.

الأطر الروحانية المكانية لمكة المكرمة

ساعدت الأحكام الفقهية لفريضة الحج على صياغة مجموعة من النطاقات المكانية المتمايزة حول البيت الحرام. فمن التقاليد الأساسية لدخول الكعبة وبدء طقوس أداء فريضة الحج أو أداء العمرة، أن يكون الإنسان المسلم «مُحرِمًا». وقد اتفق الفقهاء على وجود محيط مكاني محدد يميز النطاق الجغرافي الذي يصبح من الواجب داخله أن يكون المسلم في حالة الإحرام، وإلا أفسد العمرة أو الحج. وبصورة أكثر دقة، يمكن القول إنَّ الكعبة المشرفة يحيط بها ثلاث نطاقات أو دوائر مكانية؛ المنطقة الأولى هي نطاق الطواف والتي تعرف باسم (المطاف)، وهو الحيز الذي يدور فيه المعتمر أو الحاج حول الكعبة المشرفة، والثانية المسجد الحرام بأروقته، والثالثة ما يحيط بالكعبة والمسجد الحرام من حرم حتى المواقيت، ولا يستطيع المرء تخطي الدائرة الثالثة قاصدًا دخول مكة المكرمة في حج أو عمرة إلا مُحرِمًا مُهِلاً بالتلبية. وتُحرَّم عليه محرَّمات الإحرام، وحدودها الشرعية هي من الكعبة المشرفة إلى عرفات شرقًا ومنها إلى الشميسي غربًا، ومنها إلى جهة الشرائع شمالاً، ومنها إلى جهة الجنوب من حدود مكة الشرعية. بمعنى آخر فإن الإطار الجغرافي ومورفولوجية الأرض وتضاريسها، بالإضافة إلى التفسير الشرعي لمناسك الحج وتدرُّج القداسة المكانية للبيت الحرام إلى خارج نطاق المسجد الحرام أنتج ما يمكن أن يوصف بالنطاقات المكانية الشرعية.

التطور العمراني للمدينة المقدسة

لقد تشكَّل الطابع المعماري والعمراني لمكة المكرمة خلال أحداث كبرى في تاريخ الحضارة الإنسانية والإسلامية. تعرضت مكة خلالها لحلقات متغيرة من التغيرات الاجتماعية والعمرانية. فقد كان الحرم المكي وقلب المدينة محور مجموعة من مشاريع الامتداد والتوسعة التي أنتجت نموًا عمرانيًا لا يمكن التراجع عنه، كما غيَّرت تلك المشروعات الطابع العام للمدينة تغييرًا جذريًا. فالعامل الأكثر تأثيرًا وأهمية في تشكيل المدينة هو قيمتها الروحانية والقدسية التي ارتبطت بها بصورة خاصة مع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي. والمصادر التاريخية توضح أن التحولات العمرانية، ما قبل منتصف القرن العشرين، تطلبت إطارًا زمنيًا ممتدًا لحقب طويلة. كان التغيير المتسارع هو المعيار المميز لفترة ما بعد الخمسينيات وحتى الآن في تحولات مكة المكرمة. فعلى مراحل متعاقبة تم استبدال النسيج المعقد وتداخل الاستعمالات السكنية والتجارية والعقدية والمعرفية بمجموعات من قطع الأراضي الضخمة التي تضم الفنادق وأبراج الضيافة والإقامة العملاقة. وعلى الرغم من تعدد المشروعات والقرارات التخطيطية الكبرى التي اتُّخذت لتطوير المدينة ووضعها العمراني، فقد وضعت تلك القرارات ضغطًا هائلاً على التشكيل العمراني للمدينة التاريخية المقدسة. بل في كثير من هذه القرارات لم يُنتَبه إلى تأثير الجوانب المادية والتنسيق العمراني والمعماري لمكة على قيمتها الروحية، وضرورة الاستمرارية التاريخية للنسيج العمراني لمكة كعنصر مادي معبر ودالّ على الجوانب غير المادية من قداسة المدينة. إن الأماكن والمدن ذات الطابع الروحاني المتميز مثل مكة المكرمة تتطلب مداخل مغايرة ومبدعة ومبتكرة في معالجة القضايا العمرانية والتنموية والتخطيطية. هذه المداخل يَجب أن تُعني بخصوصية المكان وتمايزه وتتفهم بعمق قيمته التاريخية والروحانية. وبالتالي فإن كل ما يحدث من مشروعات وخطط لمستقبل مكة يجب أن يخضع لاختبار عميق لبيان مدى توافقها وتلاؤمها مع قداسة المدينة.

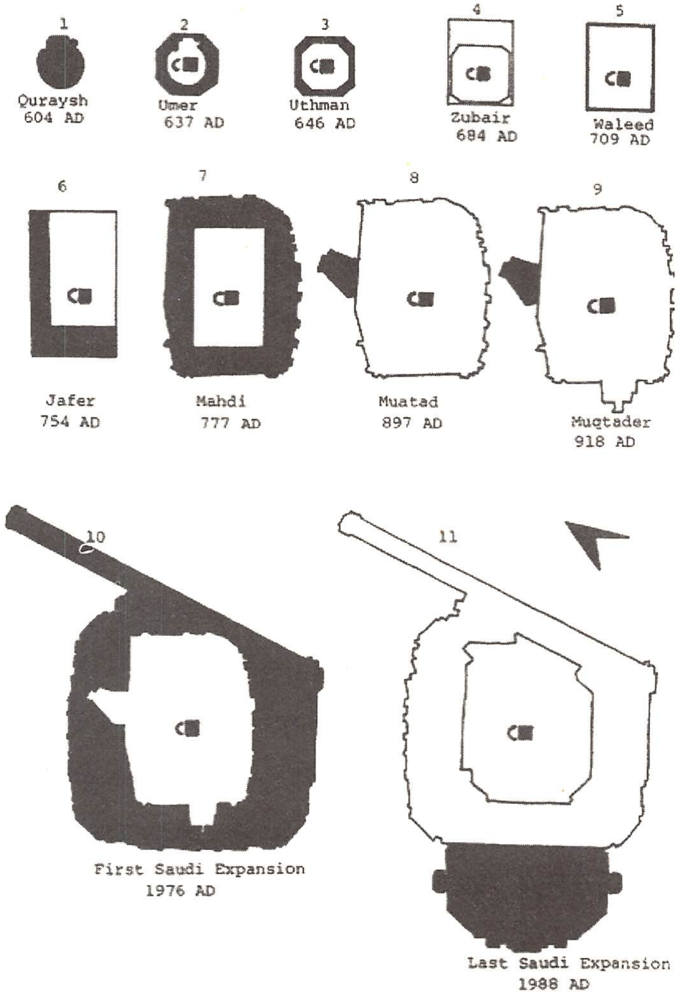

التوسع في الحرم المكي المقدس عبر التاريخ وحتى نهاية القرن العشرين (المصدر: توبة، ١٩٩٧).

وقد اتصفت ديناميكية المنطقة المركزية في مكة المكرمة بالهدوء النسبي عبر التاريخ، فقد كانت معظم الأعمال العمرانية مقتصرة على الترميمات البسيطة. فحتى وقت قريب لم يخرج النطاق العمراني لمكة عن حدود الوادي، وكانت اللغة المعمارية والعمرانية البسيطة التقليدية بنسيجها العضوي هي السائدة في عمرانها. ولم يكن ارتفاع أعلى مبانيها يتجاوز أربعة طوابق. إلى أن تغيرت سمات التنمية كمًا ونوعًا

خلال فترة السبعينيات الهجرية حيث قام الملك (عبد العزيز) رحمه الله بوضع نواة التوسعة الأولى فازدادت مساحة المسجد وقدراته الاستيعابية بشكل كبير جداً، كما هو موضح في الجدول رقم (١). وفي عهد الملك (فهد) بدأ العمل في التوسعة الثانية التي فاقت جميع أبعاد التنمية العمرانية في المدن المقدسة في العالم. وفي الواقع أنها كانت قفزة كمية ونوعية للمسجد وذلك لتركيزها على البيئة الروحانية، و الطبيعية، والإنسانية داخل المسجد. هذا بالإضافة إلى الزيادة الهائلة في المساحات والقدرات الاستيعابية. ومن ثم حدث التحول الأكبر في عمران المدينة فشُقَّت الأنفاق التي ساعدت على امتداد المدينة لأول مرة في تاريخها خارج حدود الوادي.

جدير بالذكر أن الأرقام الموضحة في الجدول لا تعكس البعد النوعي للمسجد. فبالإضافة إلى العمارة المتميزة للمسجد الحرام التي استخدمت أحدث التقنيات للتحكم البيئي في الحرارة والصوتيات والإضاءة، تمت إضافة مئذنتين (ليصبح إجمالي العدد تسع مآذن) وازداد ارتفاعها إلى أكثر من تسعين متراً لتأكيد دورها كأهم معلم بصري في مكة المكرمة. وارتقت فعالية الحركة بداخل المسجد الحرام، ومنه وإليه، فزُوِّد بأنظمة للحركة، تشمل المصاعد والسلالم المتحركة، والعديد من الأبواب الإضافية لتيسير الدخول والخروج. وقد شملت التكاليف الموضحة في الجدول رقم (١) تعويضات نزع الملكيات وفتح الشوارع المؤدية للمسجد وتحسينها. (الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام ١٤١٩هـ).

تأثير الحرم المكي الشريف على السياق العمراني للمدينة

شهد تاريخ مكة المكرمة العمراني أحد أهم تطوراته خلال العشرين سنة الماضية، فقد عكست التوسعة الأخيرة في عام ١٤١٣ للحرم المكي الشريف الأهمية الخاصة للحرمين الشريفين في هذا البلد، وقد أدت إلى تغيرات جذرية في خصائص المسجد، بل على مكة المكرمة بأكملها. وكانت التغيرات الأساسية كَمية فأثرت في الطاقة الاستيعابية لأقدس بقعة في الإسلام، وكانت هناك أيضًا تغيرات نوعية، فقد أجريت تحسينات للارتقاء بمستوى البيئة الروحانية والطبيعية للمسجد. ولكن بقيت تحديات جذرية في البيئتين الطبيعية والعمرانية في المنطقة المحيطة بالمسجد. ففي تلك المنطقة

ارتفعت أسعار العقار، ولكن البيئة المبنية بشكل عام لم ترتق إلى مستوى التحدي العمراني؛ لتواكب الطلب المتزايد على الفراغات الكافية واللائقة حول المسجد. ولذا فقد بدأت محاولات طموحة للتجديد الحضري في المنطقة، وهي أكبر المشاريع العمرانية في تاريخ المملكة العربية السعودية.

وقد أولى كثير من ولاة المسلمين الحرمين الشريفين عظيم اهتمامهم بالتطوير والتوسعة لمواكبة الزيادة المطردة في أعداد الحجَّاج والمعتمرين والزائرين، وذلك لتسهيل عملية تأدية الشعائر. وتتصف مشاريع توسعة الحرمين الشريفين عبر التاريخ بالتأثير على المحيط العمراني لهما، خلافًا لما اعتادته كثير من المشاريع العمرانية ذات الطابع التوسعي من تأثير المحيط العمراني على المبنى أو مجموعة المباني.

كما عُرفت مكة بشبكة من الطرق التقليدية التي تصب من جميع الجهات في اتجاه المسجد الحَرام، إضافة إلى الأسواق التي انتشرت حول الحرم لخدمة الحجاج. وقد استمر هذا النمط العمراني يُشكِّل الخطوط العريضة لنمو مكة حتى أواخر العهد العثماني. وتعتبر البيئة المحيطة بالكعبة مباشرة هي القلب التاريخي لمكة، وهو الجزء الذي يلتف حول الحرم مركز المدينة، وقد تطورت هذه الرقعة خلال القرون الماضية من أجل خدمة غرض معين ومحدد بالذات، ألا وهو تقديم التسهيلات للحجَّاج والمعتمرين سواء قبل الإسلام أو بعده. وظل المسجد الحرام محافظًا على توسعته العثمانية قرابة أربعة قرون عدا بعض الإصلاحات والترميمات الضرورية التي شهدها خلال تلك الفترة. وبعد تأسيس الدولة السعودية عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)، فقد شهدت مكة التوسعة الأولى للمسجد الحرام، تحت حكم آل سعود، وحدث بعدها تطور ملحوظ في مد الخدمات الضرورية إلى أحيائها، وتمهيد كثير من الطرق الرئيسية، وإنشاء الساحات حول المسجد الحرام، كما أن الهدم الذي شمل مئات المساكن لتوسعة المسجد الحرام والساحات وشق الطرق دفع السكان الذين هدمت منازلهم إلى السكن خارج المنطقة المركزية.

ومنذ تولي آل سعود مقاليد الحكم، نال المسجد الحرام منذ العام (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م)، اهتمامًا ورعاية متواصلة حتى كانت نقطة التحول الرئيسية في

مسار التطوير هذا بداية من عام (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) وعلى نحو غير مسبوق. حيث استحدثت عملية البناء العملاقة التي تُعرَف بمشروع تَوسعَة الحرَمين الشريفين لتَعمَل تقريبًا بلا تَوقُّف وحتى يومنا هذا. وفي إطار مشروع التَحديث والتوسعة المستمرة تحققت انجازات متعددة تَمَّ فيها تجديدٌ شامل للكعبة المشرَّفة، بالإضافة إلى توسعات وتحسينات وترميمات وإصلاحات واسعة، داخل الحرم المكي الشريف وخارجه. وكان المعيار الهام دائمًا للحكم على كل هذه الانجازات هو زيادة الطَّاقة الاستيعابيَّة لزُوَّار المسجد الحرام والتي وصلت إلى الضِّعْف في مشروع التوسعة الأول عام ١٩٨٦م. وفي إطار هذه التَّوسعة السعودية تمت إزالة جَميع المباني القديمة المحيطة بالحرم، ممَّا أتاحَ تَوسعة طول المَسعى من الدَّاخل ٣٩٤م و ٢٠م للعرض كما تَمَّ تشييد دور علوي له على ارتَفاع ١٢م، وتميَّز المسعى الجديد بثمانية أبواب رئيسية تُشرف على واجهة الشارع العام من جهة الشرق، هذا بالإضافة إلى إقامة سقف مُستَدير مُقبَّب فوق الصفا، بجواره منارةٌ يصل ارتفاعُها إلى ٢٩م، كما جعلت للمسجد ٩ مَآذن جديدة. (محمد عبد الغني، «تاريخ مكة المكرمة قديمًا وحديثًا»، المدينة المنورة: مطابع الرشيد، ٢٠٠١م).

المرحلة	القدرات الاستيعابية (أعداد المصليين)	إجمالي المساحات (المباني والساحات)	التكاليف التقديرية	ملاحظات
ما قبل توسعة الملك عبد العزيز.	٤٧٠٠٠ مصلي	٢٩١٢٧م٢		لم يتغير على مدى أربعة قرون.
بعد توسعة الملك عبد العزيز ١٣٩٦،	٣١٣٠٠٠ مصلي	١٦٠١٦٨م٢	ألف مليون ريال.	تم احتواء المسعى (السعي بين الصفا والمروة) في المسجد.
بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين ١٤١٣هـ.	٨٢٠٠٠٠ مصلي تزيد إلى مليون مصلي في وقت الذروة.	٣٦٦١٦٨م٢	ألف مليون ريال.	تشمل تكاليف نزع الملكيات. تكاليف الطرق المؤدية للحرم ٩,٩ ألف مليون ريال●●.

الجدول رقم (١). توسعة المسجد.

المصدر: الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام (١٤١٩هـ).

●● أمانة العاصمة المقدسة.

الارتفاع	عدد المباني	النسبة المئوية	مجموع مساحات الأدوارم٢	النسبة المئوية
١-٢	٦٩٧٤	٦٠,٠٥	١٧٧١٤٤٨	٢٩,٠٢
٣-٤	٣٢٥٣	٢٨,٠١	٢٠٥٢٢٤٣	٣٣,٦٢
٥-٦	١١٣٦	٩,٧٨	١٠٨٨٩٩٥	١٧,٨٤
٧ فأكثر	٢٥١	٢,١٦	١١٩١٥٤٦	١٩,٥٢

الجدول رقم (٢). كفاءة البناء في المنطقة المركزية.

- المصدر: المخطط الهيكلي لمكة المكرمة (الأوضاع الراهنة- القضايا الأساسية)، ١٤٢٠هـ.

إن أحد الإنجازات المهمة التي أثرت في المنطقة المركزية هي الدراسات التي أجريت للتعرف على أهم القضايا والتحديات في مجال التخطيط المحلي، والتنمية العمرانية. وخلال العقدين الماضيين أجريت عدة دراسات جادة من قبل مكاتب استشارية دولية كجزء من المخططات الرئيسية، والشاملة، والهيكلية لمكة المكرمة، وقد أثرت هذه الدراسات العمرانية في بلورة أهم أسس التخطيط الاستراتيجي للمنطقة. جدير بالذكر أيضًا أن هناك دراسة مخطط مكة الأول (دراسة المخطط الرئيس لروبرت ماثيو، ١٣٩٣هـ) ودراسات شركة مكة للإنشاء و التعمير، التي تم بموجبها وضع المسح الميداني للمنطقة المركزية. وأما الدراسات الرسمية خلال العشرين سنة الماضية فهي:

١- دراسة مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة (دار الهندسة) عام ١٤٠٦هـ.

٢- دراسة مناطق العمل المختارة (آركي بلان)، ١٤١١هـ.

٣- دراسة المخطط الهيكلي لمكة المكرمة (البيئة)، ١٤٢٠هـ.

وفي كل من تلك الدراسات، طرحت قضية الالتزام بالعلاقة البصرية بين المسجد الحرام والمناطق المحيطة به.

أولاً: مقترح دار الهندسة (١٤٠٦هـ)

جاءت فيه ثلاثة مقترحات تبلورت في تكوين حلقات دائرة تشع من الكعبة للمناطق المحيطة بالحرم، ويهدف هذا النظام الإشعاعي الحلقي إلى توجيه جميع المباني، وممرات المشاة، والشوارع إلى الكعبة بطريقة عضوية تأخذ في الاعتبار عوامل الطوبوغرافيا،

ومسارات الحركة المناسبة، ومحاولة تجنب الأسلوب الهندسي الجامد. ويهدف المقترح أيضًا إلى رفع المباني بدور واحد عن مستوى الأرض لتيسير حركة المشاة والمركبات، مع العلم أن التصميم حدَّ من وصول السيارات إلى المسجد باستثناء خدمات الطوارئ. وحدَّد المقترح أيضًا ارتفاعات المباني المطلة على الساحة مباشرة بحيث لا تتعدى سبعة طوابق، على أن تصل في الأجزاء الخلفية إلى خمسة عشر طابقًا. واقترح المخطط الحضري أيضًا أن تتم التنمية من خلال شرائح مقطعية بدلاً من أن تكون دائرية.

ثانيًا: مقترح سندي (١٤٠٨هـ)

جاء في هذا الاقتراح أن تكون الكثافة الإجمالية منخفضة للغاية. وعليه فقد أوصى بأن تكون ارتفاعات المباني من أربعة إلى ستة طوابق فقط، وأن يتم التركيز على تقوية روابط المواصلات إلى المناطق الحضرية خارج المنطقة المركزية. وأن يُعطى الطابع المعماري التقليدي المكي أهمية خاصة في تطبيق تفاصيل التصميم الحضري. ولم يتضمن هذا المقترح فكرة رفع المباني على قواعد لتيسير الحركة واتصال صفوف المصلين أفقيًا كما جاء في مقترح دار الهندسة، ولكنه ركَّز على حركة المشاة لتصبح هي الحركة الأساسية حول المسجد.

وعلى الرغم من هذا الوعي النسبي لدى المخطِّطين الذين طرحوا تصوراتهم عن المدينة المقدسة فإن السلطات السعودية لم تكن عازمة على مقاومة أفكار تنموية تُسقط الأبعاد الروحانية للمكان. كما أن القدرات الفنية للدلائل الإرشادية التي أصدرتَها أمانة العاصمة المقدسة لم تكن تهتم مطلقًا بقضية علاقة المشروعات بشخصية المكان وقداسته، بقدر ما كانت تهتم بأمور كمية تنظيمية. ومن الملاحظ أيضًا أن أحد العوامل المشتركة الأساسية في التصورات التخطيطية الموضحة سابقًا، هو ضرورة وجود تصميم حضري شامل للمنطقة. والمقصود بذلك هو تحديد التصور العام للعلاقة بين العمران و المسجد الحرام بما يتناسب مع المكانة الروحانية، والعمرانية، والبيئية، والثقافية، والاقتصادية للمنطقة.

وعلى مستوى تراث مكة المكرمة المهدد، فقد استعرض الباحث (فقيه، ٢٠١١- ١٤٣١ هـ) ملامح وسمات التراث العمراني في الماضي في مكة، وظهر من الدراسة

مدى تنوع هذه الملامح وغنى هذه المنطقة في السعودية وثرائها بتراثها العريق. كما أوضح أن الأنماط والطرز المعمارية القديمة تواجدت بسبب الوافدين إلى مكة الذين استقر بهم المقام فيها، ومن بينهم الحرفيون والبنَّاؤون الذين نقلوا خبراتهم المختلفة. وكان هذا التراث حصيلة تجارب أجيال متعاقبة أثرت فيها ظروف اجتماعية ودينية واقتصادية ومناخية. ولكن مع اكتشاف البترول بكميات اقتصادية تعرضت المملكة لطفرة معمارية، وكان معها التغيرات السريعة في التكوين المعماري حيث جُلبت التقنية العالية والعمالة الأجنبية والأفكار المعمارية الحديثة بأشكالها وأنماطها المختلفة، وعملت العمالة الأجنبية ونفَّذت المشروعات العملاقة بالمملكة دون مراعاة لظروف المجتمع، وتم تجاهل التراث الحضاري لمكة على حساب توسعة المسجد الحرام. وتعرض التراث العمراني في المملكة، وخاصة في مكة إلى النسيان والضياع، وكادت العمارة تفقد هويتها التاريخية، وكان لظهور الحاجة إلى استقبال الأعداد الكبيرة من الحجَّاج والمعتمرين أن تم اللجوء إلى هدم أماكن بأكملها، فاندثرت بذلك ملامح كثيرة. ولم تترك سرعة التطور المعماري المجال لتجديد الملامح العمرانية الجديدة بالمراعاة والتي تعكس التراث الحضاري والتاريخي العريق، فلم يكن بالإمكان البناء بنفس المقياس أو تكرار ما كان موجوداً. وبالتالي ظهرت اتجاهات مختلفة للعمارة في مكة وكانت بعض المحاولات في المشروعات التي اكتفت بالاستخدام السطحي لبعض المفردات والملامح الشكلية، ومحاولة معالجة المظهر الخارجي للمباني بما يتلاءم مع العمارة المكيَّة التقليدية. ويمكن الاستنتاج أن الهوية المعمارية قد تغيرت في مكة عمَّا كانت عليه بصورة قد يجوز قبولها في مدينة تاريخية عادية بدعوى تنميتها وتطويرها، ولكن بالقطع لا يمكن قبول هذا المنهج في سياق المدينة الأقدس عند المسلمين.

الفصل الثاني:

القداسة والعمارة: مفاهيم العمارة المقدسة

«مضيت في طريقي دون رفيق يؤنسني أو قافلة ترافق دربي، تدفعني إلى ذلك رغبة مكتوبة في القلب لزيارة الديار المقدسة»

الرحالة العربي المغربي الأشهر ابن بطوطة.

«جمال الشكل الذي لا نراه، لا يمكن وصفه»

جلال الدين الرومي

تمهيد

المهمة الأساسية لهذا الكتاب هي تقديم طرح نقدي متكامل عن منطق التنمية المعمارية والعمرانية، والمداخل التخطيطية لمكة المكرمة في الحقبة المعاصرة. ومثل هذا الطرح بقدر ما يسعى إلى فهم واستيعاب دروس الماضي، فإنه يؤكد على ضرورة صياغة منطق تنموي مختلف للتعامل مع نطاق مقدس شديد القيمة في المستقبل. ومن المهم قبل التطرق إلى تحليل ونقد حالة تطور العمارة والعمران في مكة المكرمة، وخاصة في هذا السياق الحساس، أن نرصد الجهد التنظيري والتحليلي الذي يربط بين العمارة والقداسة. ومن هذا المنطلق يناقش هذا الفصل العلاقة بين العمارة والعمران من جهة، وبين الجوانب الروحانية القدسية التي يمكن أن تتحقق في البيئة المعمارية والعمرانية والتخطيطية من جهة أخرى. كما يناقش الفصل أسباب حصر مفاهيم القداسة والأبعاد الروحانية Spiritual Aspopects في المباني والنطاقات ذات الطابع الديني. حيث يطرح الفصل مدخلاً إضافيًا يرى أن الأبعاد الروحانية في العمارة والعمران هي قيمة من الضروري أن يتم استيعابها في كل أنواع المباني والفراغات العمرانية والتخطيطية بغض النظر عن وظائفها. فأي مكان يتعامل معه الإنسان يجب أن يخاطب عقل من يستخدمه ووجدانه وروحه ومشاعره، ويساعده على الانغماس في تجربة روحانية ثرية متعددة المستويات. يتتبع الفصل أيضًا رحلة الحج في الماضي، ويربط بين مشقة الرحلة والتهيئة النفسية والمادية وكذلك البصرية ليصبح الحاجّ أكثر قدرة على الانغماس العميق في تجربة الحج. وهنا يلعب المكان - ببساطته وقدرته على تكثيف حالة المساواة والخضوع إلى الله سبحانه وتعالى - دورًا جوهريًا. وأخيرًا يناقش الفصل أبعاد الأزمة الإبداعية المعاصرة وتقليص فهم عمارة المجتمعات الإسلامية وعمرانها إلى معالجات بصرية حتى في أقدس أماكن العالم. إن القيمة الحقيقية للعمارة تكمن في تحولها من مجرد مبان إلى إبداعات تمس الوجدان والعقل وتخاطب المشاعر بمستوياتها المختلفة وصولاً إلى الرسائل الروحانية.

العمارة والقداسة الإنسان:

ما معنى العمران والعمارة المقدسة (Sacred Architecture and Urbanism)؟

إنَّ صفة القداسة عند استخدامها مرتبطةً بالعمارة والعمران، تؤدي بصورة خاطئة، إلى حصر هذه العلاقة في نطاق المباني الدينية فقط. أما عندما يتسع مفهوم العلاقة بين العمارة والقداسة ليصبح القدرة على تحقيق تكامل روحاني جمالي ووظيفي داخل العمل المعماري والعمراني، فإننا ننتقل إلى حالة تجعل كل مبنىً أو نطاقًا عمرانيًا، مهما صَغُر أو كَبُر، قابلاً لأن يكون محمَّلاً بقيم تصميمية وتشكيلية تثير الأجواء الروحانية للمكان تُثريها وتكثِّفها. والواقع أن إضفاءً أجواء روحانية على الأماكن التي استقر بها الإنسان بدأت مع سكان الكهوف في بدايات التاريخ حيث حاول الإنسان بما رسمه على جدرانها أن يعكس رغبةً واحتياجًا عميقين للإيمان، والتساؤل واستكشاف ماهية الكون.

الإشكالية الثانية ترتبط بقصر صفة القداسة الروحانية في العمارة والعمران على السياقات الدينية فقط. إن العلاقة بين العمارة المقدسة والعمارة الدينية قد تكون أحياناً متناقضة، وليست بالضرورة صحيحة دائمًا. فالعمارة الدينية هي المباني العامة التي شُيِّدت من أجل ممارسة طقوس دين أو عقيدة معينة. وعلى هذا القياس فإن المعابد الفرعونية واليونانية والرومانية والمعابد البوذية والسانجان اليهودي والكاتدرائيات والكنائس المسيحية والمساجد، كلها مبان دينية ولكنها ليست بالضرورة انعكاسًا لفهم عميق أو سطحي للعلاقة بين العمارة والقَداسة وروحانيات المكان. إن العمارة المقدسة تُعرَّف خطأً أحيانًا بأنها العمارة الدينية، وهذا خطأ فنَّده الكثير من الباحثين في مجال العلاقة بين العمارة والقداسة. فالواقع أن وصف القداسة في العمارة والعمران يتجاوز المباني الدينية، ويصل إلى كل تصنيفات المباني بلا استثناء، وبكل الأحجام والمقاييس، من غرفة نوم إلى كوخ صياد إلى حارة ضيقة إلى مبنى برلمان إلى قرية أو مدينة كاملة.

العمارة كانت، باستمرار؛ تمثيلاً ماديًا لمعان مقدسة في جميع الحضارات التي مرت في تاريخ البشرية. فمن خلال التصميم المعماريّ حاول الإنسان أن يربط بين ما يصوغه من بيئة مادية على الأرض، وبين تطلعاته لمثاليات جنات الله الواسعة. ولذا كانت قيمة

الجمال هي الأكثر عمقًا في صياغة منظومة النتاج المعماري الذي يجعلك تقترب من حالة الجمال الرباني وبواسطتها حاول الإنسان أن يوفر لنفسه مظهرًا من مظاهر الجنة. إن العمارة المقدسة ركَّزت دائمًا على الجمال بأبعاده العميقة التي تمس الروح والعقل. وقد يكون من البدهي أن هذا المنهج يجعل من البنية الهندسية للعمل المعماري أو العمراني آلية جوهرية في تحقيق المشاعر الروحانية. لقد درس المعماريون والعمرانيون والمخطِّطون في الحضارات المختلفة الأبعاد السماوية والهندسة الربانية وحققوها في مقاسات مبانيهم على الأرض. حيث شاع الاستخدام الشامل للأبعاد المستلهمة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فانعكست على تصميم المساقط الأفقية والواجهات والتشكيل الثلاثي الأبعاد للفراغات المعمارية والعمرانية.

ومن خلال التحليل الهندسي للمباني التاريخية في الحضارات المختلفة تمكَّن العديد من الباحثين من إلقاء الضوء على العلاقة بين العمارة والقداسة من خلال البنية الهندسية للمكان. هناك بعض البحوث الشاملة المتخصصة في المجال الميتافيزيقي والرياضي و العمارة التي كشفت عن جزء من المعرفة العميقة المستخدمة في العمارة التقليدية التاريخية المقدسة وخاصة المباني الدينية. إن لغة المقدس ومفرداته يمكن أن نراها في مبان تتنوع طبيعتها ووظيفتها وتاريخها من البارثينون إلى معبد الأقصر ومن كاتدرائية سانْ بيتر إلى مسجد ابن طولون. وفي كل هذه النماذج نرى الأنساق الفلكية والهندسية تتداخل عضويًا في صياغة المبنى.

لقد انشغل العديد من المعماريين والعمرانيين بالكيفية التي يمكن للعمارة بماديتها وواقعيتها، أن تحتوي أبعادًا روحانية تثري قدسية المكان. كما أصبح موضوع التأثير النفسي الروحاني للمبنى أو للفراغ العام على الإنسان هدفًا أخر يهتم به المعماريون والعمرانيون إلى جانب الأبعاد البصرية والجمالية المؤثرة في التشكيل المعماري والعمراني. ومن هنا بدا يتضح جليًا أن الجوانب الروحانية في العمارة والعمران قيمة مضافة وهامة تضفى ثراءً إضافيًا على البيئة المبنية مهما كانت وظيفتها ولا تُقصرَ على المباني الدينية.

يقينًا فإن المباني الدينية هي المباني الأكثر مناسبة وقدرة على احتواء القدر الأكبر من الجوانب الروحانية في العمارة والعمران. ولكن من القصور وتسطيح العملية الإبداعية

أيضًا، أن نعتبر أي مبنى أُنشئ من أجل وظيفة دينية، يكتسب بالضرورة صفات القداسة والروحانية. كما أن الدلائلَ والأمثلة والتجارب الإنسانية تشير إلى إمكانية امتداد التأثير الروحاني إلى خارج نطاق المباني التي تؤدي الوظائف الدينية المتعارف عليها كالكنيسة والمسجد. فمن الجائز جدًا أن يكون تصميم المسجد أو الكنيسة ناجحًا في استيعاب المصلين والمتعبدين، ولكن لن يدخلهم نفسيًا وحسيًا في الأجواء الروحانية الملائمة لشعائرهم وطقوسهم. فالمتوقع في المباني الدينية أن المتلقي (المتعبد) يتطلع إلى تجربة تتم من خلال الطقوس والصلاة والتأمل، تساعده على الانتقال إلى ما وراء المادي والحسي واستشراف العوالم الروحانية السماوية. وهذا ما يفسر أن العديد من مباني العبادة بُنيت في أماكن بها طاقة روحانية كامنة، ونابعة من أحداث فارقة في عقائد وأديان بعينها مثل قصة الإسراء والمعراج وقبة الصخرة. وكذلك حالة دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء الذي بُني على سفح جبل سيناء حيث تحدث الله سبحانه وتعالى إلى النبي موسى عليه السلام. ومن أكثر المجالات التي وُظِّفَت لإضفاء البعد القداسي والروحاني في الفن والعمارة والعمران هي البنيات الهندسية الناتجة عن الفهم العميق لمبادئ الرياضيات والتشكيل الهندسي. وفي حالة بناء الكعبة المشرفة، على سبيل المثال، فإن بنيتها التشكيلية كمكعب نقي، وكذلك إطار مجالها المكاني الجيومتري الهندسي يؤكد مجموعة من الثوابت، منها فكرة المركز وفكرة التوجه والاتجاه وفكرة الطواف بإيقاع منتظم لا نهائي الحيوية والاستمرارية. هذه السيمفونية الروحانية تستكملها فكرة وجود الماء مجسدًا في بئر زمزم حيث الماء هو أصل الوجود وسر الحياة.

«الرياضيات هي الأبجدية التي كتب بها الله الكون»

العالم جاليليو

إن الكثير من النتاج البنائي الذي يمكن وصفه بالقبح افتقد للعلاقة بين العمارة والروحانية مهما كانت بساطة العمل وحجمه ووظيفته. بينما الكثير من الأعمال المعمارية والعمرانية المتميزة بل والخالدة التي أبدعها أسلافنا، كانت تحاول التحاور مع القدرة الربانية العليا وتجتهد للاقتراب منها. كانت هناك دومًا محاولة من العمارة لتأكيد العلاقة المنسجمة بين الإنسان والكون. العمارة التقليدية المقدسة حاولت أن تمثل الكون في أبعاده

الدنيوية. ولذلك استخدم المعماري التقليدي الهندسة للتعمق في فهم عمليات الطبيعة، من أجل قيادة العقل التأملي من المعقول إلى عالم مفهوم. في تلك الحقبات القديمة كان هناك وعيًا بعمل المعماري داخل تقليد مقدس يمكن من خلاله التبصّر بطبيعة الواقع الإلهي. في الحقبة المعاصرة، تم التخلي عن هذا التقليد لصالح تعريف ضيق ومحدود للعمارة والعمران والتخطيط في إطار المبادئ النفعية للكفاءة والاقتصاد.

في مقاله التحليلي الافتتاحي لعدد خاص من مجلة العمارة والسلوك، أُعدّ خصيصًا لمناقشة علاقة العمارة بالإيمان، أشار البروفيسور (سها أوزكان) إلى أن حركة أو مشروع الحداثة (Modernism) احتوى في إطاره الفكري على توجهات علمانية أسقطت العلاقةَ التي رُصدت تاريخيًا بين الإيمان والعمارة والبيئة المبنية بصفة عامة (أوزكان، ١٩٩٦). بينما حاولت عمارة ما بعد الحداثة (Postmodernism) من خلال منظِّريها عبور الفجوة بين الإيمان، بمستوياته الفردية والجماعية، وبين العمارة والعمران (جينكز، ١٩٩١؛ ١٩٩٦). وكانت وسيلتهم الوحيدة لتحقيق هذا العبور هو الانتباه إلى السياق الاجتماعي، فالعمران، طبقًا لمفاهيمهم، نتاج مجتمع له خصائصه المتباينة والمتمايزة. وقد اجتهد الباحثون للتنبيه إلى هذا الفارق الكبير بين الوظيفي المحدود والمقدس الرحب. ففي كتابه «العودة إلى العمارة المقدسة» يقدم (بانجز)، الدلائل على أهمية تجاوز الوظيفية الحادة التي صبغت عمارة القرن العشرين وعمرانه. ويؤكد على ضرورة أن يجد المعماريون والعمرانيون إمكانيةً للتواصل العميق مع الأبعاد الكونية بنفس الكيفية التي استرشد بها هؤلاء الذين بنوا معابد الماضي. في هذا السياق الجديد فإن شكل المباني سوف يعكس أنماطًا مقدسة للهندسة والنسب الكونية، تطرح مزيدًا من التوافق والتناغم في العالم.

عمارة وعمران الفراغات المقدسة

واحدٌ من أهم التعريفات لدور المعماري والعمراني هو قدرته على تقديم صياغة إبداعية لتشكيلات فراغية تستوعب داخلها وحولها أنشطة يمارسها البشر كافة. إنَّ جوهر العمارة والعمران يعتمد على تنظيم مجموعات من الفراغات والأحيزة المكانية، فالتأثير الجوهرى للعمارة والعمران على سلوك الإنسان ومشاعره، يتأتى من ملامح

تلك الأمكنه من مقاييس وأحجام وتسلسل فراغي وقدرات استكشافية للتحرك خلال هذه الفراغات . الفراغات أو النطاقات المعمارية والعمرانية العظيمة هي التي تؤثر في الإنسان تأثيرًا فريدًا وتدمجه في تجارب حسية وبصرية وإدراكية متمايزة . فعلى المستوى العمراني ، فإن الشارع الناجح أو الميدان المتميز هو الذي يساعد المشاة ويشجعهم على التداخل والتفاعل الإنساني وخلق مستوى جديد من العلاقات والتآلف . كذلك فإن بعض الفراغات المعمارية أو العمرانية تدعوك إلى التأمل والسكينة والبحث في عمق ذاتك ، وتدفعك إلى تساؤلات عن حياتك ووجودك ، وهذه هي الفراغات الروحانية . وهذه القدرة ليست دائمًا صفة للمبنى العملاق الثري ، ولكنها نوعية ، أو صفة يمكن أن تتجسد أحيانًا في مبان بسيطة ومتواضعة . إذن فالقيمة الروحانية للمكان تتجاوز قيمته المادية ومقياسه البنائي أو العمراني .

من أفضل الأمثلة على هذا التصنيف مسجد قرية القرنة الذي صممه وبناه رائد عمارة الفقراء المعماري المصري (حسن فتحي) وكان المسجد أحد أهم مكوناتها . هذا المسجد الذي بني من الطوب الطيني ، وبه أناقة تتجاوز الزمن ، وفي الوقت ذاته فهو بسيط وروحاني ومرحب بالإنسان .

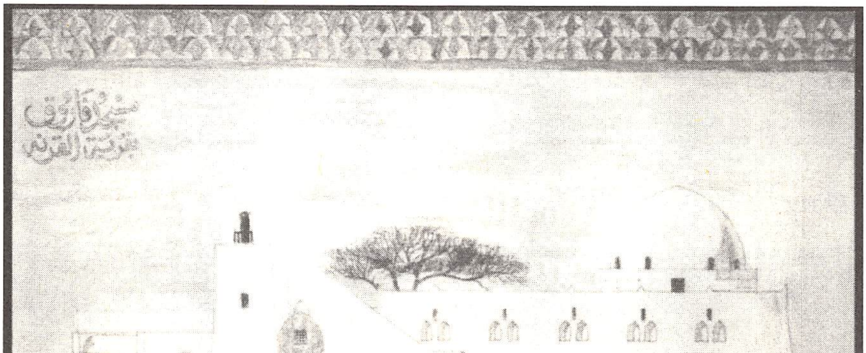

حالة مسجد القرنة بمدينة الأقصر المصرية الذي بني من الطوب الطيني،
وبه أناقة تتجاوز الزمن وفي الوقت ذاته بسيط وروحاني ومرحب بالإنسان.

هذه البساطة المعمارية والتوجه إلى استخدام مكونات المبنى لإضفاء الأبعاد الروحانية مرصودة في عمارة المستقرات البسيطة التقليدية في المجتمعات الإسلامية المختلفة ومنها مصر على سبيل المثال. هذا النسق الثقافي والموروث الاجتماعي، استمر مع الفتح العربي الإسلامي لمصر، ونظراً لحجم المشقة التي كان يلاقيها الحجَّاج في انتقالهم إلى مكة في رحلة تستغرق شهوراً طويلة، كان المصريون يخلدون تلك الرحلة على جدران منازلهم لتذكرهم ومن حولهم بقدسية الفريضة وروحانيتها. استمر فن «التعبير الشعبي المصري عن الرحلة المقدسة» حتى الوقت الحاضر في بلاد النوبة وريف مصر وصعيده. حيث مازال الجدار الخارجي للمنزل يقدم شاهداً على الحالة النفسية والروحانية بل والاجتماعية، وتتجدد معالجة هذا الجدار مع ديناميكية النسق الاجتماعي. فمع عودة الحجَّاج تنتشر رسوم «الكعبة» بيت الله الحرام، وحولها الطائرات والبواخر وعبارات الشكر والأمنيات والدعوات «حج مبرور وذنب مغفور». ويتبارى المصريون خلال موسم الحج في الإعلان عن أدائهم لتلك الفريضة من خلال تزيين واجهات منازلهم برسوم وعبارات تتعلق بمناسك الحج وزياراتهم للأراضي المقدسة. جدران البيوت تتحول إلى جداريات تتسم بالحيوية وتؤسس لظاهرة يتسم بها الريف المصري، ويرى البعض أن تلك الظاهرة تمثل نوعاً من التفاخر والتعبير عن الحب المتوارث من المصريين للحج كفريضة لا يقدرعلى أدائها كل إنسان. ويتولى رسم هذه المناظر الجميلة فنانون شعبيون بطريقة فطرية وتلقائية.

شكل ٢-٢

الجدار الاحتفالي على المنزل النوبي تيمنا برحلة الحج المقدسة والعودة السالمة بالحج المبرور والذنب المغفور (شاري، ٢٠١٠).

في فهم روحانية عمران المجتمعات الإسلامية

في تقاليد الحضارة الإسلامية مثلّت الرياضيات وعلوم الفلك قيمة مركزية خاصة. وقد انعكست هذه القيمة على الفن والعمارة، وتحولت المعادلات والعلاقات والدياجرامات الرياضية من تشكيلات ثنائية الأبعاد إلى تشكيلات حجمية ثلاثية الأبعاد. كما أن الأرقام بصورة خاصة استخدمت للتعبير عن وحدانية الله. ولذلك فإن النسب وتعاقب الأرقام استخدمت بصورة مبدعة في فنون وعمارة المجتمعات الإسلامية (مان، ١٩٩٣). لقد تحكمت الأرقام في تصميم البلاطات الخزفية الملونة والسجاد والكليم والنوافذ الخشبية وزخارف المساجد، وحتى البنية الهندسية للمبنى. كما أن الارتباط مع الأرقام ومراعاة توافق النسب جعل المنتج الفني في عمارة المجتمعات الإسلامية أقرب إلى التشكيلات الطبيعية. ومن خلال فهم علوم الفلك حاولت عمارة المجتمعات الإسلامية، وخاصة في المساجد، أن تستحضر القوة الإلهية، وأن تُشعر المتعبد بوجود الله المهيمن، بأن تكون انعكاسًا للكون وارتباطًا به ودلالة عليه. وبنفس المنطق تشكل المنزل والوكالة وحتى المدينة كلها.

نماذج بديعة من البنيات الهندسية للزخارف التي استخدمت في البلاطات الفخارية المزججة في أرضيات وحوائط الفراغات المعمارية والعمرانية

إن التصور الإسلامي يقوم على التسليم بوحدة مصدر عالم الخلق علويّه وسفليّه. فبالنظر إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل الأشياء، وأن كل شيء في خلق الله هو بالقطع قيم وجيد ومحبب. وبالتالي فإن كل ما هو دنيوي ومادي يمكن أن يُحمَّل بقيم روحانية ومقدسة، لأن معية الله بعلمه وإحاطته وعنايته تشمل كل مكان في الوجود. «وهذا يفسر أن المسلمين لديهم ارتباط عاطفي وتاريخي مع مواقع جغرافية معينة تأتي على رأسها مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والمسجد الأقصى (سيمنز، ٢٠٠٨). ومن المنطلق الأعم وهو قداسة كل مكان، فإن الصلاة يمكن أن تُقام في أي مكان، لأن كل السياق المكاني والطبيعي يتسم بالقداسة كجزء من خلق الله كما ذكرنا آنفًا، ومع ذلك فبعض المواقع هي الأكثر قداسة في الإسلام. الموقع الأكثر أهمية هو مكة المكرمة، مولد النبي عليه الصلاة والسلام، ويُعتَقد أنها مركز العالم. فمكة المكرمة بأسرها مقدسة، وهي فقط متاحة للمسلمين. أما الموقع الثاني الأكثر قداسة في الإسلام هو المدينة المنورة، حيث توفي النبي عليه الصلاة والسلام. وثالثًا تأتي القدس، المقدسة في الإسلام لأنها مسرى النبي ﷺ وفيها «قبة الصخرة»، أقدم المساجد حاليًا، حيث يرجع تاريخها إلى عام ٦٩٠م، وهي المكان الذي صعد منه النبي ﷺ، إلى السماء في رحلة ليلية عاد منها بشرائع الصلاة، أما مكة المكرمة، فإن إدراكها كنطاق مقدس تلتقي فيه السماء بالأرض يرجع إلى قداسة فراغاتها، بل وقداسة كل من يتواصل معها عن بُعد، ومنها المساجد المنتشرة حول العالم والتي تتوجه روحانيًا كما توجهت كتلتها البنائية إلى مكة المكرمة. وبسبب قضية التوجه إلى مكة، كانت البنية الهندسية للمدينة في المجتمعات الإسلامية تعبيرًا قدسيًا روحانيًا.

تتميز عمارة وعمران المجتمعات الإسلامية بتكامل القيم الرمزية مع البنيات الهندسية. ومن ملامح هذا التكامل استخدام الألوان ودلالاتها. ففي الزخارف سواء بالبلاطات الفخارية أو أعمال السجاد نلمح تكرارًا واضحًا للألوان الرئيسية؛ الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر، وهي ألوان معبرة عن الطبيعة وعناصرها الرئيسية ومواسمها المختلفة، ولكن يبقى الأخضر أقواها لأنه يحتوى الكل ويرمز لهناء الجنة المنشود. القيم الرمزية تتجسد أيضًا في التشكيلات المعمارية للفراغات بصورة شديدة الوضوح. فالفراغ الأوسط الحدائقي، أو الفناء الأخضر المفتوح هو تجسيد للجنة

وتواصل مع السماء، والبوابات هي بوابات للدخول إلى الأرقى والأفضل والأسمي؛ إلى البيت الطاهر. أما القباب فهي تجسيد للقبة السماوية. هذه التصورات أنتجت عمارة تكثّف التجربة الروحانية لمرتاديها، وتهيئ لهم السكينة، وتحقق مستويات من التأمل الإيجابي اللازم للمؤمن المتعبد المتطلع إلى تجربة روحانية فريدة في كل لحظة من حياته. ومن أفضل أمثلة قدرة المبنى على تقديم إطار روحاني مستقل، ومهما كان حال سياقه المحيط، حالة مسجد ابن طولون في القاهرة. فالمسجد هو جزيرة من القداسة والروحانية وسط مدينة صاخبة مزدحمة. وفي منتصف الفناء المفتوح المفعم بالسكينة، نرصد القبة البسيطة فوق المكعب لتجسد دائما الفكرة الأهم، وهي التلاقي المقدس بين السماء والأرض في الفراغ الذي يستوعب الناس كل يوم.

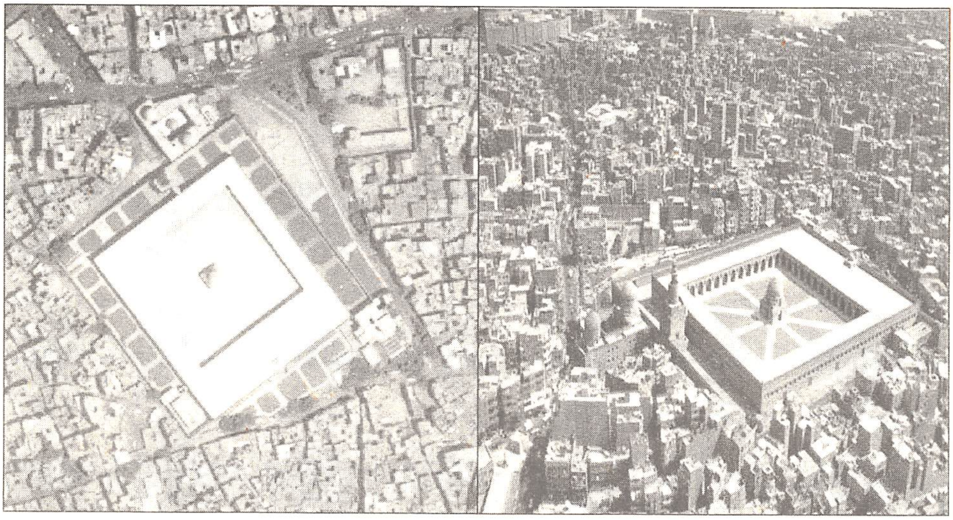

مسجد ابن طولون، مثال بديع على إمكانية العمل المعماري في خلق تجربة روحانية فريدة مهما كانت قسوة المحيط العمراني

وعلى المستوى البنائي أيضًا فإن المسجد غالبًا ما ينفتح على الفراغات التجارية والتعليمية وحتى الترفيهية، ولذلك يقدس أيضًا هذه الأنشطة. وتعتمد العديد من المساجد في صياغة فراغاتها الداخلية وتجميل واجهاتها الخارجية على أنساق وأشكال هندسية ترمز لوحدانية الله وكذلك زخرفة الخط العربي، لاسيما النصوص

القرآنية. وما بين التشكيلات ذات البنية الهندسية الساحرة والآيات القرآنية المفعمة بالمعاني يندمج المسلم في حوار داخلي عاطفي عقلاني مكثف يعمق تجربته الروحانية.

الفلسفة الروحانية لمشقة رحلة الحج

إن النطاق الأشمل لمكة المكرمة، التي يُعني هذا الكتاب بمنطق تنميتها الحالي والمستقبلي، هو في الواقع نطاق استقبال يستكمل التهيئة النفسية والروحانية للحجاج. هؤلاء الحجاج المشاركون في رحلة قد تكون هي المرة الأولى والأخيرة في حياتهم، وهي بالقطع الرحلة الأهم في عمرهم كله. لا يمكننا إدراك لنا أن ندرك نعمة السلاسة المذهلة لرحلة الحج المعاصرة، إلا عندما نقارنها بكيفية الحج في الماضي. وقد يكون من المدهش ألا نحتاج إلى العودة العميقة في التاريخ، بل يكفينا قرن واحد فقط. هنا تأتي قيمة التصوير الفوتوغرافي الذي سجَّل لنا رحلات الحج في بدايات القرن العشرين. بدأ التصوير والتوثيق الفوتوغرافيين للحج إلى مكة المكرمة في الستينيات من القرن التاسع عشر. والمجموعة الفوتوغرافية الأقدم هي الخاصة بالعقيد المصري (محمد صادق)، عضو هيئة الأركان العامة في جيش محمد علي باشا. ولد العقيد (صادق) في مصر عام ١٨٣٢م، ودرس في باريس حيث تزامل مع (رفاعة الطهطاوي)، وتعلم فنون الرسم والتصوير أثناء دراسته، ما أعطاه الفرصة لتوثيق مكة فوتوغرافيًا عندما أرسله الجيش المصري في بعثات متتالية أولها عام ١٨٦١م. أما الطبيب (محمد حسيني) الذي ولد في الهند عام ١٨٦٣م، والذي عمل في منصب قنصل بريطانيا في مدينة جدة، فقد عرضت مجموعته الخاصة التي صورها لرحلة الحج عام ١٩٠٨، من لحظة استقبال الحجاج في ميناء جدة قادمين من مصر حتى انتهاء تأديتهم للمشاعر المقدسة، في معارض متعددة.

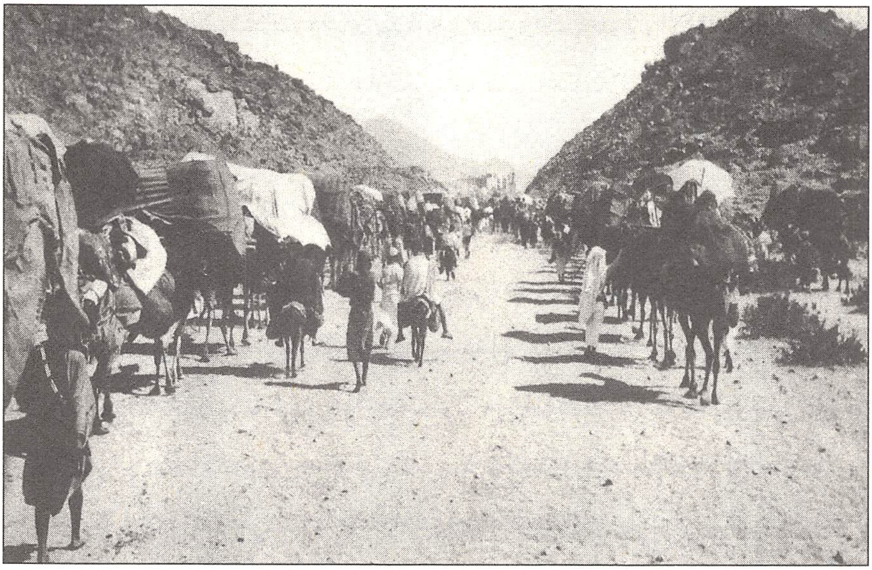

موكب الحجاج في طريقهم إلى عرفات مخترقين مدخل وادي منى.

(من مجموعة المصور محمد حسيني، ١٩٠٨).

وترجع أهمية هذه المجموعة من صوره، إلى أنها تجعلنا نرى أهم أحداث ومراحل الحج، وأجوائه المقدسة منذ قرن كامل. ومنها وصول القافلة المصرية إلى ميناء جدة؛ موكب المحمل والكسوة الخاصة بالكعبة الشريفة؛ المواقع المقدسة والروحانية على طول الطريق من جده إلى مكة، وقبر (حواء) في مدينة جدة، والحصون التركية، ودار شريف مكة المكرمة، وبورتريهات عدة شخصيات مشهورة من هذه الفترة، مثل (عبد الرحمن باشا اليوسف)، أمير بعثة الحج العثمانية. وبطبيعة الحال، فإن المجموعة الفوتوغرافية تضم توثيقاً نادراً يظهر الكعبة ومني وعرفات والمزْدلفة بصورة لا يمكن أن نراها في الوقت الحاضر. إن المجموعة تؤكد فلَسفة الحج والنهج الذي كان يسيطر على أجواء المكان، حيث البساطة والتواضع والتساوي بين الجميع الغني والفقير، كلهم متساوون أمام طريق الرحلة القحل الشاق وحرارة الجو القاسية. ويستمر هذا الإحساس بالمساواة أثناء تأدية مشاعر الحج ذاتها. لقد عرضت المجموعة رحلة الحج وطقوسه وأجواء مكة المكرمة، ومناطق تأدية مشاعر الحج المختلفة، وذلك قبل تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك (عبد العزيز آل سعود). لقد نجحت تلك

المجموعة الفوتوغرافية البديعة في إعادة الذاكرة إلى الماضي فيما يتعلق بشكل الأماكن ومشاهد وأسلوب الحياة الذي اختفى الآن تمامًا بدواعي التطوير والتحديث.

موكب الحجاج قبل الوصول إلى مكة المكرمة (من مجموعة المصور محمد حسيني، ١٩٠٨).

مشقة رحلة الحج أيضًا كانت محورًا واحدًا من أهم أفلام السير الذاتية التي أوضحت أن الحج رحلة روحانية عميقة، وتجربة شخصية فريدة تغير حياة الإنسان أحيانًا وللأبد. يقدم فيلم «الحج» الذي أُنتج عام ٢٠٠٩، وأخرجه (بروس نايبور Bruce Neibaur)، عرضًا دراميًا بالغ التأثير لمشقة الحجّ التي هي جزء لا يتجزأ من روحانية التجربة وعمقها. استوحى الفيلم بناءه الدرامي من رحلة المغربي الأشهر (ابن بطوطة) (٧٠٣-٧٧٩)، وهو العالم الذي أصبح أهم رحّالة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية.

«من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس (٢ رجب ٧٢٥ هـ) معتمدًا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفردًا عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فحزمت أمري

على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وَصَباً، ولقيت كما لقيا نَصبًا».

وقد بدأ (ابن بطوطة) رحلته، وعمره واحد وعشرون عامًا منطلقًا من طنجه بالمغرب، مروراً بالقاهرة حتى وصل دمشق عاصمة الشام. واستغرقت رحلته شهوراً تعرض فيها للمرض الشديد وخطر الموت المتكرر، والاعتداء من قطاع الطرق ولصوص الصحراء. ولكنها كانت رحلة للتعلم والتبصر والاستعداد لخوض تجربة روحانية فارقة في حياته. ثم خرج من دمشق في قافلة الحج التي ضمت قرابة عشرة آلاف حاجٍّ من الرجال والنساء، الشيوخ والأطفال، الأغنياء والفقراء، الأدباء والشعراء والسفراء. وأمضت القافلة قرابة أربعين يومًا حتى وصلت إلى الأراضي المقدسة. هذه الرحلة القاسية في الواقع جزء لا يتجزأ من فلسفة الحج وعمق تجربته الروحانية.

في الماضي كانت رحلة الحجّ إلى مكة المكرمة تقتضي عبور الصحراء والبحار، وكانت رحلة طويلة زمنًا ومسافة، والأهم أنها كانت اختباراً لصبر الإنسان بدنيًا وروحانيًا. فمن أبعد بقاع العالم الإسلامي كان الحجّاج يشقون طريقهم في هذه الرحلة الروحانية التي تمثل حلم العمر. وبسبب وجود مواسم محددة للحج، كان الحجاج يتحركون ضمن قوافل. ضمت القوافل عادة المسافرين سيراً على الأقدام أو على ظهور الجمال وكان مراكز تجمعهم في أهم المراكز الحضارية للعالم الإسلامي وهي مدينة الكوفة بالعراق، ومدينة دمشق بالشام، ومدينة القاهرة بمصر. أما الحجّاج المسافرون بحراً فكانوا يصلون إلى الجزيرة العربية عن طريق ميناء جدة، الميناء الأكبر على ساحل البحر الأحمر.

وكانت الرحلة في هذه الظروف محفوفة بالمخاطر، فالحجّاج كانوا هدفًا سائغًا لقطاع الطرق واللصوص، كما كانوا يتعرضون للأمراض التي كانت تودي بحياة بعضهم. إلا أن إيمانهم بهدف رحلتهم أعطاهم القدرة على الاستمرار في رحلتهم خاصة مع اعتقادهم أن من يموت في طريقه للحجّ أو في الحجّ نفسه يكون مثواه الجنة

وتغفر ذنوبه. وقد تعددت لاحقًا الطرق الذي أخذ الحجّاج يسلكونها في طريقهم للحجّ.

وكان أهم الطرق، الطريق الأفريقي (القاهرة - مكة). حيث كانت القاهرة مقصداً للحجّاج المتوجهين إلى مكة من شمال أفريقيا وغربها وبلغ الإقبال على استخدام طريق الحجّ من القاهرة إلى مكة ذروته في الحقبة المملوكية (٦٤٧-٩٢٣ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، إذ استقر سلاطين المماليك في القاهرة ومنها حكموا، وسيطروا على الحجاز والمدن المقدسة. وإلى جانب حجّاج مصر، ضمت المواكب قوافل الحجّ القادمة من شمال أفريقيا وغربها والتي مثلت القاهرة لهم مركز الالتقاء. ومن أهم ملامح الأجواء الاحتفالية لقافلة الحجّ من القاهرة إلى مكة، المحمل الذي يصنع من القماش المطرز ويرمز إلى قوة السلطان ونفوذه. وقد بدأ تقليد المحمل في عهد السلطان المملوكي بيبرس الذي حكم في الفترة من (٦٥٨-٦٧٥ / ١٢٦٠-١٢٧٧م). وكان المحمل يجوب شوارع القاهرة في احتفال كبير يشهده الآلاف من سكان المدينة وزوارها. بعد سقوط الدولة المملوكية حافظ السلاطين العثمانيون على تقليد المحمل، كما استمر تقليد إرسال المحمل من القاهرة حتى عام ١٩٢٦م، حيث توقف بناء على رغبة آل سعود.

أما الطريق الثاني المهم في منظومة رحلات الحجّ قديمًا فعُرِف باسم الطريق العثماني (اسطنبول - دمشق - مكة). خلال حكم سلاطين الدولة العثمانية كانت طقوس رحلات قوافل الحج الأكثر جمالاً وتفرداً. حيث كانت تقام احتفالات عظيمة بحضور السلطان في قصر «توب كابي» بالعاصمة العثمانية اسطنبول يوم رحيل القافلة التي كانت تسمى «الصرة» التي تعني «المحفظة الإمبراطورية». وكانت سيطرة العثمانيين المطلقة على الحج قد بدأت مع بدء خلافتهم في مصر عام (٩٢٣ / ١٥١٧م)، ثم سيطرتهم على الحجاز والمدن المقدسة. والموثق تاريخيًا أن العثمانيين أنفقوا مبالغ طائلة سنويًا لتأمين القبائل والمحافظة على الطرق والعناية بالأماكن المقدسة في مكة والمدينة. وبصورة خاصة فقد اهتم العثمانيون بالطريق من دمشق إلى الديار المقدسة وحصّنوه بسلسلة من القلاع والحصون التي تحمي الحجَّاج وتؤمن لهم احتياجاتهم من المياه.

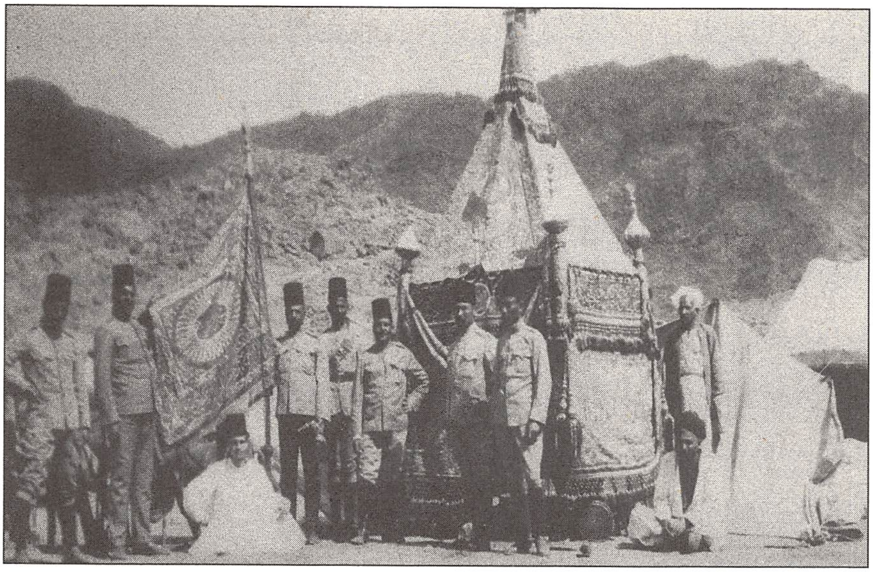

قافلة المحمل المصري متوجهة إلى مكة المكرمة في حماية الجيش المصري (من مجموعة المصور محمد حسيني، ١٩٠٨).

روحانية البيئة المبنية؛ من المبنى إلى المدينة

إذا انتقلنا من مستوى المبنى، إلى مستوى التركيبة العمرانية والتخطيطية لمدن المجتمعات الإسلامية، سنجد أنها تتوافق بوضوح، مع مفهوم التأكيد على الأبعاد الروحانية القدسية لعمارة المسجد، ودوره الاجتماعي والثقافي. وعندما نتأمل العديد من مخططات مدن المجتمعات الإسلامية نرى العلاقة بين المسجد والفراغ العام المفتوح المعروف باسم الساحة، فهي تعبر عن الحرص على توفير المجال البصري والعمراني الذي يعظم قيمة المسجد، ويحترم وجوده بداية من رؤيته عن بعد إلى الاقتراب منه وحتى الدخول إليه. ولعل أمثلة من مدينة القاهرة كالجامع الأزهر أو مسجد السلطان حسن أو المسجد الأزرق في اسطنبول تؤكد هذا النسق. هناك أيضًا مثال مسجد السليمانية الذي بني في قمة ازدهار الإمبراطورية العثمانية وهو يتكوّن من مجمع عمراني يطل على المدينة بأسرها، وقد أبدع في تصميمه وبنائه المعماري ومعلم البناء التركي (سنان) عام ١٥٥٠م.

وعند تتبع الإطار العمراني لأمثلة من العمارة المقدسة في حقبات تاريخية مختلفة نندهش من الإصرار على أن يكمل الإطار العمراني الصورة المقدسة، والأحاسيس الروحانية للمكان. في الحضارة الفرعونية على سبيل المثال، كان كل معبد جنائزي يتقدمه طريق تمهيدي، وفناء خارجي يحتوي على إيقاع من الأعمدة أو تماثيل الملوك والآلهة. نفس المنطق من قدرة السياق العمراني على التوافق مع المبني ذي الأبعاد الروحانية يُرصَد في المعابد اليونانية. تأمل الحفاظ على تفرد معبد الأكروبوليس في أثينا على الهضبة العليا، والحرص على سيطرته الكاملة على المكان. تأمل أيضًا الكاتدرائيات الكبرى في أوربا، وبالأخص في ايطاليا وإنجلترا وألمانيا، وكيف يخضع السياق العمراني لتعليمات ومحددات قاسية لضمان استمرارية القيمة المكانية والروحانية. إذن تشترك كل الحضارات القديمة والوسطى والمعاصرة في الاهتمام بالرحلة المادية والبصرية التي يقوم بها الزائر إلى المكان المقدس. هذه الرحلة نفسها هي تمهيد وتهيئة للإنسان للانغماس في تجربة روحانية ملهمة ومؤثرة.

هذا الإطار أو العبق الروحاني يتجاوز تأثيره معتنقي ديانة ما، ويصل أحيانًا إلى كل من يزور المدينة أو المبني حتى لو اختلفت العقيدة. فالكثير من الأجانب الذين سُمِح لهم بزيارة الحرمين المكي والنبوي تأثروا بعبق المكان، واقتربوا من فهم الإسلام بل اعتنق بعضهم الإسلام. نفس العبق الروحاني يشعر به الإنسان مهما كانت عقيدته أو ديانته في نطاقات روحانية ومبان مقدسة مثل مسجد (أحمد بن طولون) أو مسجد السلطان (حسن) بالقاهرة أو كنيسة (آيا صوفيا) أو مسجد السلطان (أحمد) المسجد الأزرق باسطنبول أو كاتدرائية نوتردام في باريس.

عمران المجتمعات الإسلامية المعاصرة: الأزمة الإبداعية

تتميز حضارة الإسلام التقليدية بتأكيدها على الجمال المتجسد في كل جانب من جوانب حياة الإنسان من تلاوة القرآن الكريم حتى صناعة الأوعية والأواني. فالبيئة الإسلامية التقليدية بشقيها المادي والمعنوي دائمًا جميلة لأن الإسلام يرى الجمال جزءًا مكملاً للحقيقة (نصر ١٩٩٩. ص٢٠). في عالم يُنظَر فيه إلى جمال الإسلام بشيء من الخوف، يحدثنا الفن عن حقيقة جمال هذا الدين كطريق وأسلوب عظيم للحياة.

وقد قام نصر (١٩٨٧)، بتحليل أهداف ومقاصد الفن التقليدي والعمارة والخط والشعر والنثر الأدبي وغيرها، لأنها نشأت في الأراضي والبلاد الإسلامية. وقدم شرحًا هامًا مستندًا إلى تفسير كل شكل من أشكال الأدب كعمل مقدس يساهم في مجمل روحانية الفرد والمجتمع. وقد بيَّن (نصر) كيف استند كل شكل من أشكال الفن في التقليد الإسلامي على علم من علوم الطبيعة ذات العلاقة، وليس على المظهر الخارجي للأشياء، ولكن على حقيقتها الداخلية. مروراً بالخط والرسم والعمارة والأدب والموسيقى والفنون التشكيلية يدخل (نصر) في البعد الداخلي للإسلام ويبين الدور الذي يلعبه الفن في حياة الفرد المسلم وفي المجتمع ككل، وهو دور يعزز تذكُّر وتأمُّل الذات الإلهية. وعندما يرسي نصر الفن كشيء مساعد وداعم للحياة الروحية يتتبع العمل الإبداعي حتى مصدره الأصلي : المعرفة الداخلية والبركة التي تجعل بلورة الحقائق الداخلية من حيث الشكل والمكان والزمن ممكنة. ومن خلال هذه المعرفة والبركة، يؤكد الكاتب أنَّ الوحدة تتجلى في وضوح التعددية جاعلة الحقائق الإلهية الروحانية قابلة للرؤية والملاحظة عبر الحواس. ومن خلال المعرفة والبركة أيضًا يعمل الفن كسلم لرحلة الروح منتقلة مما هو مرئي إلى اللامرئي.

من هنا تتبلور أزمة التفسير المعاصر لعمارة وعمران المجتمعات الإسلامية في انحساره بين تصنيفين بارزين:

الأول: يتعامل مع الرصيد التراثي من منظور استهلاكي بهدف الترويج السطحي لاحترام الثقافة والعقيدة والمجتمع. هنا تصبح قيمة ما أبدعه المعماري والمخطِّط المسلم خلال حقب تألق العمران والعمارة الإسلامية محصورة في مجموعة من المفردات التشكيليَة التي تُستهلك بسطحية في إضفاء طابع قشري من الأصالة المنشودة على البيئة العمرانية.

الثاني: يرى عمران المجتمعات الإسلامية التقليدية كمحتوى لنماذج من الحلول المعمارية والعمرانية والتخطيطة التي يجب تكرارها، وبصرف النظر عن ملاءمتها للسياق الحضاري الحالي، وكذلك الاختلاف الجذري في المتطلبات والطموحات الإنسانية للمسلم المعاصر.

والواقع أن كلا التفسيرين يُسقط الحقيقة الأكثر شمولاً، وهي أن المسلمين هم في الواقع بشر ينتمون إلى الحالة الإنسانية بعمومها. إلا أنهم يتمايزون بعقيدتهم وقيمهم، وفي الوقت ذاته يتماثلون مع المجتمع الإنساني العالمي يتشاركون مع قطاعاته المتباينة في العديد من القيم والتطلعات الإنسانية العامة. ومن هذه التطلعات ما يخص العمارة والعمران وشكل المدينة وأولويات التخطيط بها. إن عمران المدن في المجتمعات الإسلامية المعاصرة يجب أن يتجاوز التفسيرين السابقين، وأن يتوجه نحو أُطُر جديدة للمدينة المعاصرة. ومن أهم هذه الأطُر التي تبرز في أدبيات التخطيط والعمران المعاصرة: المدن الصديقة للطفل، المدن الصديقة للمرأة، المدن الصديقة للإنسان، المدينة العادلة، المدينة الصديقة للمشاة، والمدينة المعرفية والإبداعية. هذه المفاهيم الجديدة في صياغة العمران العالمي أصبحت مسئولة عن درجة ارتباط المجتمع بالمدينة وانتمائه إليها. كما أن هذه المفاهيم أصبحت تشكّل القوام الرئيسي للمعايير التي يتم صياغتها واختبار مدى تحققها لتحدي تصنيف المدن الأفضل في العالم استقبالاً واهتمامًا بسكانها وزوّارها.

تبدو أمامنا في سياق هذا النقاش أيضًا فكرة الإبداع التي قد تتناقض جزئيًا مع فكرة الحنين المستمر إلى الماضي. فمن الخطأ أن نتغاضى عن ندرة مساهمة المسلمين في اللحظة المعاصرة، والاكتفاء بترديد مقولات كلاسيكية مستهلكة عن مساهمتنا التاريخية في الحضارة العالمية عندما شهدت الحضارة الإسلامية أوج تقدمها وازدهارها. إن التحدي الأكبر يرتبط بتساؤل عن كيفية مساهمة تلك الحضارة الموروثة والحنين الدائم إلى الماضي والارتباط العضوي بالجذور في تحفيزنا الدائم للمساهمة الإبداعية التي تجسد مساهمة المسلمين في المشروع الإبداعي الإنساني في الإطار الزماني والمكاني الذي نعيشه الآن في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

وبصورة عامة فان كل الشواهد التي تتراءى أمامنا توضح طبيعة الحقبة الحرجة التي يمر بها المسلمون والمجتمعات الإسلامية في سياق تحدٍّ عالمي. لقد أصبحت المجتمعات الإسلامية ضمن إطار وجودي عالمي يضيق ويصغر وتقترب أطرافه بمعدلات كبيرة،

وتتلاشى حدوده الجغرافية أحيانًا مما يتطلب بحثًا مستمراً عن التمايزات الثقافية والهوية الإسلامية وصياغة أطُر مبدعة لتطويرها وتنميتها وليس قولبتها وعزلها . ومن هنا تأتي أهمية التعامل الذكي مع الماضي بحيث لا نقع في فخ التعامل العاطفي اللاعقلاني دون تحليل أو انتقاء أو أن ننزلق إلى رفض الحاضر والمستقبل بدعوى التمسك بالماضي . الماضي هو الرافد لبناء غد أفضل ، ومن هنا تأتي الأهمية العظمى والمسئولية الكبرى الواقعة على أكتاف المبدعين بصفة عامة والمعماريين والعمرانيين بصفة خاصة في إنتاج الفراغات والأماكن التي تحترم الماضي وتتواصل معه ولكنها أيضًا تخاطب العصر وتستكشف فضاءات مستقبلية .

الفصل الثالث:

تنمية مكة المكرمة: نوايا التحديث وإشكاليات التشويه

«وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليّ وأكرمه على الله»

محمد رسول الله ﷺ

«إنني يا سمو الأمير [الأمير خالد الفيصل، أمير منطقة مكة المكرمة] أشعر بالضيق والمرارة عندما أسمع وأشاهد لغتنا العربية، عنوان هويتنا وشخصيتنا تحترق في لغة جرمانية غربية، وأسماء «فيرمونت، إنتركونتننتال، موفنبيك، جراند كورال، ميريديان، رافلز، هارموني، وغيرها من الأسماء، تحيط بالمسجد الحرام والمسجد النبوي وبعضها يُطِلُّ عليهما.

ما انطباع الحاج والمعتمر والزائر بعد أن يعود إلى بلاده وهو يحمل ذكريات السكن في فندق «الفيرمونت»، والغداء في «الإنتركونتننتال»، والعشاء في «ماكدونالدز»، وترسخت في ذهنه أنماط معمارية شاهدها في واشنطن وماليزيا ودبي ولندن؟ أين قداسة أم القرى ومدينة النور وروحهما وتاريخهما والإحساس العميق والشعور بهويتهما العظيمة؟».

عبد السلام اليمني

تمهيد

رغم التاريخ الثري والقيم الروحانية التي تميز مكة المكرمة، إلا أن مكة في الحقبة المعاصرة تندرج بالقطع تحت تصنيف مدن الخليج المعاصرة. فهناك العديد من الإشارات والعلامات التي تؤكد هذا الطرح، وأهمها التوجه المتسارع نحو نموذج العمران العالمي. وفي إطار هذا الفصل نناقش التحولات الرئيسية التي شهدها عمران وتخطيط مدن الخليج المعاصرة. ويتناول التحليل المطروح تأثير إشكاليات هامة، أبرزها قضية العولمة، واستجابة مدن الخليج إلى رغبة ملحة ومتزايدة للتواجد على المسرح العالمي. كما يتطرق الفصل إلى التحديات البارزة التي تواجه مستقبل مكة المكرمة من حيث ازدواجية التطلع إلى تطوير المدينة كنموذج عالمي يقترب من حالة مدن خليجية واعدة مثل دبي وأبوظبي والدوحة. أو تنميتها وتطويرها كسياق روحاني مقدس، تمارس خلاله أعظم شعائر الدين الإسلامي، وركنه الخامس المتمِّم وهو حج بيت الله الحرام. ويشرح هذا الفصل أيضًا حجم أعمال الهدم التي تمت وتتم في المدينة المقدسة في خضم الحراك المتسارع نحو استبدال نسيج المدينة القديم، وعمارتها وعمرانها وأنساقها التخطيطية بالمزيد من الأبراج الشاهقة التي تؤكد البعد العالمي للمدينة. كما ينبه الفصل إلى الكم الهائل من التراث المعماري والعمراني والتخطيطي الذي فُقد في العقدين الأخيرين وانتهى إلى الأبد ويستحيل استرجاعه، مما يضع تحديًا كبيرًا أمام صياغة مصير أكثر إنسانية وتحضرًا للمتبقي من تراث مكة.

الفصل الثالث:

عمران مكة المكرمة: نوايا التحديث وإشكاليات التشويه

عولمة المدن الخليجية المعاصرة.

القيمة الاقتصادية لموسم الحج.

مكة : مدينة متعولمة المظهر؛ أم مدينة مقدسة الشكل والمضمون.

الموقف المجتمعي والقدرة النقدية للنخبة السعودية

إشكالية استدامة الروحاني والمقدس.

صراع القيم العقارية والقيم التراثية.

صراع مشاريع التوسعة في مكة: بناء المستقبل أم هدم للتاريخ؟

عولمة المدن الخليجية المعاصرة

عَرَّفَت الباحثة (ساسكيا ساسن) «المدن العالمية» Global Cities بأنها المدن التي تمثل مراكز هامة ومؤثرة في النظام الاقتصادي والسياسي والثقافي والحضاري العالمي. والمدينة تتأهل لهذه الصفة بسبب قدرتها على الفهم، ثم التعامل الذكي مع معطيات العولمة، وخاصة مفاهيم التدفق المعلوماتي والمعرفي والبشري والاقتصادي والمالي.

يتربع على قائمة المدن العالمية عدة مدن أمريكية أهمها نيويورك وشيكاجو، بينما تمثل مدينتي لندن وباريس نماذج المدن العالمية في القارة الأوربية. والواقع أن قراءة الأدبيات التي حلَّلَت ملامح المدن العالمية؛ تبلور بُعدَين أساسيين لتفسير وجودها ونموها في العالم بداية من عمق أوروبا والولايات الأمريكية، إلى مدن الخليج.

البُعد الأول، وهو الشكل العمراني والتركيبة البصرية التي جعلت من الصورة العمرانية لمدن مثل نيويورك وشيكاجو وشنغهاي مرجعية بصرية وذهنية لمفهوم عالمية

المدينة. وقد تحولت هذه الصورة تدريجيًا إلى إطار مرجعيٍّ تهتدي به المدن حول العالم لإعطاء انطباعات جيدة عن قوة اقتصادها وقدراتها. وأصبحت مراكز العواصم في الكثير من بلاد العالم، أو على الأقل أجزاء منها، ما هي إلا مجموعة من محاولات مختلفة المقاييس لاتباع هذا النموذج الطاغي.

أما **البُعد الثاني** في تعريف وتفسير المدن العالمية، فهو الذي اهتمت به الباحثة (ساسن)، وهو أكثر عمقًا في تعريف ووصف المدن العالمية. حاججت (ساسن) بأن تعريف مدينة ما بأنها «مدينة عالمية» لا يرتبط بشكل المدينة فقط، بقدر ما يرتبط بقدراتها على خلق مركز جذب عالمي محفز ومستقطب للاستثمارات والبشر والمعلومات والأموال والأعمال (ساسن ٢٠٠٠).

ومن خلال طرح ساسن، يمكن تفسير نمو مدن الخليج العربي، وخاصة في الحقبة المعاصرة، من خلال قراءة جديدة تعتمد على قوى العولمة وتأثيراتها، وانجذاب المدن الخليجية لرغبة التواجد على المسرح العالمي بتحويل صورتها الذهنية والمادية من قرى للصيادين بسيطة في تشكيلها أو مدن متواضعة تقليدية، إلى تصور أقرب ما يمكن إلى المدن التي وُصفَت في بدايات القرن العشرين بالمدن العالمية. فقد تبنت مدن الخليج العربي فكرة المَدن العالمية، ووجدت فيها ما يؤهلها للمشاركة النسبية فيما يجري على مسرح الاقتصاد العالمي. ففي مدن الخليج تتبلور إشكالية العولمة بصورة أكثر وضوحًا، في ظل اهتمام تلك المدن بالتعرض للفكر ونمط الحياة ومنطق الاستثمار والاستهلاك الغربي، في ظل منافسة إقليمية شرسة. والعولمة ليست ظاهرة حديثة، إلا أن الموجة الجديدة من العولمة فُسِّرَت إقليميًا على أنها ليست تدخلاً ماديا أو احتلالاً، بل انسياب ناعم وخاصة في الجوانب اللاملموسة من الثقافة والمكان والإنسان، وتأثيراتها أصبحت غير قابلة للتغيير وتصعُبُ مقاومتُها.

مدن الخليج العربي إذن هي حالة خاصة في علاقتها بالموجة المعاصرة من العولمة، فمنذ اكتشاف النفط تدفّق الملايين إلى إقليم الخليج العربي وأنتجوا أماكن للاستهلاك ومشروعات متعددة وأماكن تسمح لأنماط «الحياة العالمية» بالنمو والازدهار. وفي

العقد الأخير، أصبحت دول الخليج أكبر معمل للعمارة والعمران والتشييد في العالم. في عواصمها ومدنها تُشيَّد أطول الأبراج وأضخم المطارات. وقد كانت مدينة دبي في دولة الإمارات العربية المتحدة هي المدينة المُبادرة إلى تبني نهج الأهمية القصوى للصورة العمرانية للمدينة في تسويق عالميتها أو بالأحرى تعولمها. بل إن هذا الاندفاع إلى عولمة المدينة الخليجية وخاصة من الناحية البصرية جعل البعض يعتقد أن دبي فقدت روح المدينة الخليجية العربية (صادق، ٢٠٠٤) وتحولت إلى معمل مفتوح لاختبار وتطبيق موضات وطُرُز معمارية غربية لتدعيم هويتها الجديدة كمدينة عالمية، ومن ثمَّ خُلقَت بيئة معمارية وعمرانية مليئة بالأوهام والفانتازيا المنفصلة جذريًا عن البيئة المكانية والثقافية للإمارة. الأكثر أهمية هنا أن التساؤل الجوهري الذي لم يُطرح بعد بشأن ما يمكن تعلمه من تجربة دبي في إنتاج المدينة السريعة اللحظية التي تُسقِط العنصر الرئيسي في تكوين المدينة وهو الزمن.

> **«.. لقد بدأت المدينة الخليجية تفقد حيويتها وملامحها وقسماتها إلى حد بعيد، فإذا نظرت إلى طراز البناء، أو نظرت إلى سِحَن الوجوه في الشوارع والدوائر، أو نظرت إلى طرز اللباس والمأكل والمشرب، فيصعب عليك تحديد الجغرافيا التي تعيش فيها».**
>
> **(السدحان ٢٠١٠، ص٢٠).**

ولكن من زاوية تحليلية أخرى قد يكون من الجائز فهم اندفاع إمارة دبي نحو تبني نموذج المدينة المتعولمة، ولو حتى على المستوى البصري أملاً في أن تصل إلى المرحلة التالية، وهو تحول المدينة إلى نطاق مستقبل للأموال والاستثمارات والبشر. فالإمارة وهي أحد أهم مكونات دولة الإمارات العربية المتحدة بإماراتها السبع، أدركت مبكرًا حقيقية خلو أراضيها من النفط وهو العمود الفقري للاقتصاد الخليجي عامة والإماراتي خاصة.

المدن الخليجية في تسارعها نحو احتلال مركز على مسرح
المدن العالمية: حالة العاصمة القطرية. الدوحة.

حينما نسلِّط الضوء على الحالة التنموية المعاصرة لمكة المكرمة نتوقف أمام هذا التساؤل الجوهري؛ بينما يوجد العديد من المبررات لتفسير توجه مدن الخليج إلى فكرة «المدن العالمية» وتطبيقها وخاصة في شقها البصري التشكيلي، فإن ما يثير الدهشة هو لماذا اختيرَت مكة المكرمة أن تكون مدينة متعولِمة المظهر أكثر من أن تكون مدينة مقدسة الشكلَ والمضمون؟!

إن المدينة العالمية أو المتعولمة تظهر بها الفواصل بين الطبقات جليةً وواضحة، وهو ملمحٌ منطقيٌّ في مدن تتدافعَ فيها رءوس الأموال وتتسابق على استغلالها الشركات العملاقة متعددة الجنسيات.

ومكة المكرمة في ثوبها الجديد أصبحت مدينة مليئة بالفواصل والحواجز النفسية والمعنوية بسبب الفوارق المالية والمادية التي تحفزها وتشجع عليها المشروعات الضخمة العملاقة المحيطة بالحرم والتي تُقزِّمُ الإنسان ماديًا ومعنويًا. المثير للتأمل في هذا السياق أن مكة المكرمة لا تحتاج إلى مظهر مدينة نيويورك أو ناطحات سحاب

مدينة شيكاجو لتأخذ موقعًا على مسرح المدن العالمية. فمكة المكرمة بالفعل هي مدينة عالمية تبعًا للتصنيف الأشمل للمدن العالمية والذي يتضمن التأثير الثقافي والحضاري والعَقَدي للمدينة. واستنادًا على هذا التصنيف فإن مدينة بقيمة مكة المكرمة يجب ألا تتطلع إلى تقليد نماذج لمدنٍ تعتمد على القيمة الاقتصادية الرأسمالية في صياغة دورها العالمي.

وعدم الانتباه إلى القيمة العَقَدية الحضارية الإنسانية هو ما دفع بعض الكتاب والنقاد إلى إلقاء الضوء على أزمة التنمية المعاصرة في مكة المكرمة. فعلى سبيل المثال وجه الكاتب السعودي (عبدالسلام اليمني)، نقدًا عميقًا إلى تناقض مفاهيم التنمية في المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة. وحذَّر من عدم مراعاة للهُويَّة والرصيد الثقافي والعمراني. ونبَّه إلى الكيفية التي سيطرت بها الثقافة المستوردة على العُرف واللغة والأسماء والجغرافيا، ووصف ما يحدث في المدينتين المقدستين بحالة ارتباك وبحث عن البُعد الحضاري. بينما وجه (النعيم) نقدًا عامًا للحركة المعمارية والعمرانية المعاصرة في المملكة العربية السعودية حذَّر فيها من تحول المدن إلى سلع وتعرُّضها المستمر لفقد الشخصية والهوية.

> **«هناك إشكالية كبيرة تواجهها الشخصية المعمارية في المدينة السعودية، فحتى هذه اللحظة لا يمكن أن نقول إن هناك هوية معمارية سعودية، على رغم أننا نملك تراثًا معماريًا عميقًا!........ مدن الإسمنت هي محصلة لرسملة المدينة وتحويلها إلى سلعة تُباع وتُشترى، المدن السعودية تفتقد للهوية المعمارية، مجهدة ومنهكة لا تعمل على راحة من يسكنها، تزيد من التشتت الذهني ولا تصنع السعادة، تزيد من الضغط النفسي ولا تحث على التواصل الاجتماعي».**
>
> **د. مشاري عبد الله النعيم،**
> **أستاذ العمارة بجامعة الدمام -**
> **صحيفة «الشرق الأوسط».**

المطلوب الآن وبدون تأجيل البدء فعليًا في استعادة هوية المدينة التي استحقت أن تكون «المكرمة المقدسة»، من بين سائر مدن الكون. مرت مكة المكرمة في أعوام مضت بفترة شديدة السلبية طالت بالهدم والطمس كثيراً من رموزها ودلالاتها. مكة المكرمة أصبحت تكتظ بكل ما يتناقض وبحدة وقسوة مع خصوصية العاصمة المقدسة، وهيبتها ووقارها وإطارها الروحاني وأجواءها النقية.

القيمة الاقتصادية لموسم الحج

في مرحلة ما قبل اكتشاف النفط وبينما كانت معظم مدن الخليج، إن لم تكن كلها، تعتمد على صيد الأسماك والغطس للبحث عن اللؤلؤ، كان الحج يمثل العمود الفقري للاقتصاد السعودي. اليوم ومع كل التدفقات النقدية القادمة من عائدات البترول، فمازالت عائدات موسمي الحج والعمرة تمثل مصدراً رئيسيًا للدخل القومي في المملكة العربية السعودية، وخاصة للعاملين في القطاع الخاص. وقد بلورت هذه الأرباح الهائلة توجهًا جديداً سوَّقت له السلطات السعودية بامتياز، هو «السياحة الدينية الإسلامية». وقد أثَّر تبني هذا التوجه على ما يسمى موسمي الحج والعمرة، وتحول الموسمين إلى موسم واحد ممتد ولطوال العام يتم خلاله استقطاب «السائحين الدينيين»، من كل أنحاء العالم وعلى مدار العام كله. وعلى الرغم من السرية الشديدة التي تُفرض على الأرقام الدقيقة لعائدات هذه المواسم الممتدة المتكررة كل عام، إلا أن العديد من الخبراء يقدرونها ببلايين الدولارات (لونج ٢٠١٢) وتلك العائدات المتزايدة هي التي تفسر الإغداق الاستثماري على مشروعات البنية الأساسية والتوسعة غير المسبوقة لقدرات الاستيعاب المكانية للحرمين المكي والنبوي.

مكة: مدينة متعولمة المظهر أم مدينة مقدسة الشكل والمضمون

خلال العقد الأخير تعرضت أكثر بقاع الأرض قداسة؛ مكة المكرمة إلى موجات من التغيير والتحديث أثارت جدلاً واسعًا بين المسلمين في كل أنحاء العالم. في العقد الماضي فقط كانت مكة المكرمة، مهد الإسلام، هدفًا لبعض مخططات التنمية التجارية الأكبر والأسرع في العالم. أكثر من مائة مبنى قيد البناء حول «المسجد الحرام»، مما

سيحوِّل جذريًا المناظر الطبيعية والتاريخية والمعمارية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المدينة النامية بتسارع غير مسبوق. أحياء كاملة تعرضت لتغيرات جذرية ونزح سكانها الأصليون إلى ضواحي مكة المكرمة أو بعض المدن المجاورة. قلاع يعود تاريخها إلى قرون مضت، الشوارع ذات النسق التقليدي، الأسواق الشعبية، حتى المكتبات والمدارس والمقاهي القديمة في هذه المنطقة المركزية لمكة المكرمة قد دُمِّرت بالكامل. لم يعد هناك دلائل وفيرة من الماضي لإثراء الذاكرة الجمعية والشعبية لهذه المدينة الفريدة. تراثها المادي الملموس يتضاءل بانتظام متسارع، ويُستبدل بملامح منفصلة عن سياقها الروحاني المقدس. هذا النهج العشوائي لمشاريع إعادة التعمير في أقدس بقاع العقيدة الإسلامية يكشف عن القوى المفرطة لرأس المال البترولي والمقاولين والمطوِّرين من القطاع الخاص، وجهاز الدولة. كما يكشف عن الآثار الرئيسية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية، والسياسية والبيئية.

كما أثارت هذه التغيرات أيضًا جدلاً بين المهتمين بالنطاقات التاريخية ذات القيمة، وكيفية تنميتها واستمرار الحفاظ على طبيعتها وتاريخها وهويتها ومقوماتها الإنسانية. فقد سوَّقت الحكومة السعودية مشروعها بقيمته الخيالية من مليارات الدولارات لتطوير مكة المكرمة، وقنَّنت بصرامة جميع الإجراءات والتأثيرات التي تترتب عليه، كضرورة حتمية لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الحجاج المسلمين وتحسين خدمات الحج والعمرة (بشير، ٢٠١٠). وفي نفس الإطار، يفتخر محافظ مكة الأمير (خالد الفيصل) بخطة حكومته لدفع مكة المكرمة إلى القرن الحادي والعشرين، وتحويل هذه الوجهة الدينية إلى مدينة نموذجية للتنمية والتحديث. والهدف هو جعل مكة المكرمة المدينة الأكثر جمالاً في العالم. الجمال نسبي في الواقع، وتحقيقه يثير التساؤل عندما يكون على حساب الشعوب والجماعات الإنسانية بهدم المنازل والمعالم التاريخية والدينية.

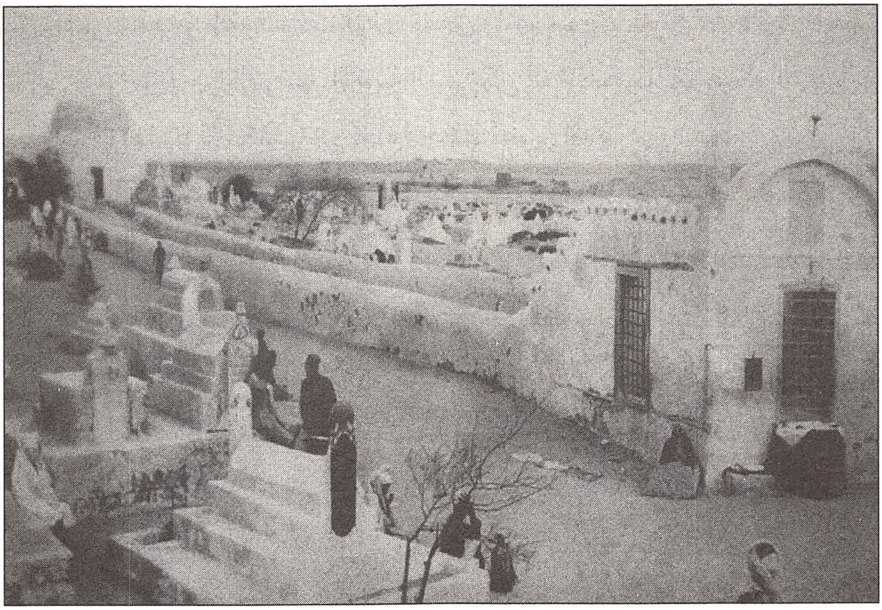

قبر حواء، سيدة البشرية الأولى، وهو القبر الذي هُدِم تماما في بدايات القرن الماضي.

وقد انعكست هذه التخوفات على أعداد متزايدة من المواطنين، لاسيما أولئك الذين يعيشون في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، بدوا قلقين على التراث التاريخي للبلاد، وهو يُسحَق تحت حركة بناء متسارعة يبدو جليًا أن الربح هو هدفها الرئيسي. لاسيما وأن تلك الحركة دائمًا ما كانت مدعومة برجال الدين والعلماء السعوديين الذين ساهموا بتفسيرات خاصة تبرر عدم المحافظة على تراث المدينة المقدسة، خاصة ذلك التراث المرتبط بحقبات معينة من تاريخها الطويل لا تتوافق مع مرجعياتهم الشرعية.

حوَّلت عملية إعادة إنتاج مكة المكرمة التي رفعت شعار «المدينة الجميلة والحديثة»، وسط المدينة إلى نطاق مكاني غريب للعديد من سكانها البالغ عددهم ما يتجاوز ١,٧ مليون. تسببت هذه العملية أيضًا في كثير من الالتباس والارتباك البصري والذهني، بل والروحاني لملايين الناس الذين يقومون بزيارة البقاع المقدسة كل سنة. تشييد المشاريع التي تستغل كل شبر من الأرض في هذه المنطقة المركزية، والمزدحمة ومحاولة

تحقيق أقصى عدد من الغرف الفندقية والشقق والمطاعم والأسواق التجارية الحصرية، أدت إلى نوع جديد من الفوضى المكانية التي يمكن أن توصف بالقمعية أو التمييزية في أحسن الأحوال. بل إن كثيراً من نقاد مخطط تطوير المدينة من السعوديين عبروا عن مشاعر مماثلة من الاغتراب والفقدان والهزيمة والحيرة كما يناقش بشير (٢٠١٠).

مكة المكرمة، المكان الذي أكد فيه نبي الإسلام محمد ﷺ، على أن المسلمين جميعًا على قدم المساواة، قد أصبحت ملعبًا للأغنياء النافذين ماليًا وسلطويًا وتشريعيًا. لقد اغتصبت الرأسماليةُ القاسيةُ الباردةُ روحانيةَ المدينة ومبررَ وجودها. والأكثر خطورة أن السياق السياسي والاجتماعي في المملكة العربية السعودية، شأنه شأن سائر الأنظمة الأحادية الملكية اللاديمقراطية، لا يوجد فيها، إلا بصورة محدودة للغاية، من يملك الجرأة على الاعتراض أو القدرة على وقف هذا التخريب الثقافي.

الموقف المجتمعي والقدرة النقدية للنخبة السعودية

ليس كل شخص يرى بريق العمارة الحديثة وبهاءها على أنه تجسيد للتقدم خاصة في نطاق شديد الحساسية مثل مكة المكرمة. لذلك فقد عاد الحجَّاج بانطباعات سلبية في الخمس سنوات الأخيرة، ولكنهم أتموا بالقطع الحجة الواحدة المطلوبة منهم تبعًا لتعاليم الإسلام، وأصبحوا بالنسبة للسلطات السعودية مجرد ماض. من هنا تأتي قيمة النقد من الداخل؛ النقد الذي يوجهه الكُتَّاب والأكاديميون، والمهندسون المعماريون، والمؤرخون، وعلماء الدين وعلماء الآثار لسياسات الإهمال والربح التي تتبناها الحكومة في مكة المكرمة يرجع إلى أيام الملك (فهد)، الذي أمر بالبدء في أكبر مشروع توسعة للمسجد الحرام. وقد نمت أصواتهم النقدية بعلو متزايد في العقد الأخير، عندما بدأت تتحقق شائعات التغيير الجذري لمكة المكرمة، وبدأت أعمال الهدم والبناء للجبهة الجنوبية الغربية التي تواجه «المسجد الكبير» لإفساح المجال للأبراج الفندقية العملاقة. وقد باءت كل محاولاتهم للحديث مع سلطات المدينة المقدسة أو المجموعة المطوِّرة (مجموعة بن لادن) بالفشل الذريع. وبدأ بعض النقاد في التعبير عن آرائهم في الصحف السعودية، وكلها مملوكة للدولة ومعرضة للرقابة، خاصة في الرياض والمدينة. وجمعت آخرين محاضراتٌ دورية واجتماعاتٌ في منازلهم، بغرض خلق

وعي جماهيري بالقيمة المقدسة للمدينة ومحاولة إيقاف المد العمراني الذي يتجاهل قيمتها الروحانية ومكانتها المقدسة (بشير ٢٠١٠). كما تمكنوا من توثيق المدينة بأكملها بالفيديو، شمل تصوير كل الأحياء، والمواقع التاريخية والأثرية والمقبرة، وغيرها من الأماكن المقدسة، قبل الهدم أو البناء وأثناءهما وبعدهما. كما يقوم آخرون بجمع التاريخ الشفوي من خلال مقابلات مع المقيمين في مكة القديمة بهدف الحفاظ على تاريخ المدينة.

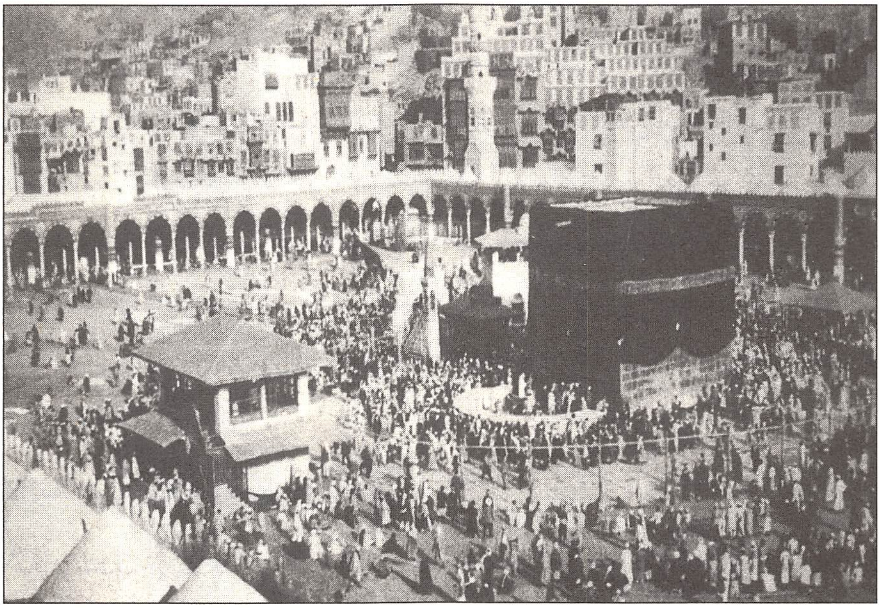

كتب هؤلاء النقاد رسائل شكوى رسمية إلى كبار أعضاء الأسرة الحاكمة. وكما عرض بعضهم، وخاصة المعماريين والعمرانيين، عدة مقترحات لإعادة التطوير العمراني الشامل لمكة المكرمة، تلك التي سوف تستوعب حقًا احتياجات جميع الحجَّاج، مع احترام مكة وسكانها، وبيئتها. خططها، ومع ذلك، أُهملت كل اقتراحاتهم لحساب المصالح الرأسمالية دائمًا، ولكن يستمر هؤلاء النقاد لجعل أصواتهم مسموعة بطريقة أو بأخرى. مما أجبر الحكومة، أحيانًا، على الإعلان عن المشروعات المستقبلية التي تخص كلاً من مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما فسَّر تعيين

الأمير (خالد الفيصل) حاكم إقليم مكة المكرمة نظراً لأنه الشخص القادر على التعامل مع هذه التحديات المذكورة. في أوائل عام ٢٠٠٩ وخلال أقل من عامين من تعيينه، حاول الأمير (خالد) تخفيف التوتر المتزايد في المدينة المقدسة بما في ذلك إشراك المكيين (أهل مكة) في عملية صنع القرار. وشجع الأمير الناس في مكة على التعبير عن أرائهم عن طريق صفحة إنترنت خاصة في صحيفة «المدينة». وأعلن أن الصفحة ستكون مفتوحة للجمهور لمدة شهر واحد، ووعد بأنه سيعمل على إدراج ملاحظاتهم في السياسات العمرانية الجديدة لمكة المكرمة. ومع أنه ليس من الواضح إذا كان الأمير فعلاً أدرج الملاحظات التي أُرسلت، إلا أن هذا الإجراء، مضافًا إلى زيادة حرص الحكومة على توضيح ما يحدث في مكة المكرمة، يدل على القوة النسبية للحركة النقدية التي تشكلت في الداخل. هذه الحركة النقدية تتضح أيضًا في عدد متزايد من المقالات والتحقيقات الإخبارية في الصحف المحلية والمدونات الإلكترونية المتعلقة بإعادة المناطق الحضرية في مكة. يقينًا لا يكفي هذا بدليل استمرار تحوُّل الخطط العمرانية إلى مجموعة من الكوارث المعمارية العملاقة التي تعتدي على الفراغات الإنسانية والحياة اليومية.

إشكالية استدامة الروحاني والمقدس

مكة، مهد الإسلام، مازالت تحافظ على طابعها كمركز للأعمال والتجارة. ولكن هذه الأبراج المتصاعدة في نفس الشوارع التي شهدت ميلاد الإسلام وانتشاره، تثير التساؤلات عن مدى علاقة هذه الأنماط من التنمية مع مبادئ الإسلام الذي أسقط الكثير من الفوارق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فالكثير من الأراضي التي تقطن بها مجتمعات كاملة من البنجلادشيين والباكستانيين والأفغانيين، يتم السيطرة عليها بمعرفة الحكومة لبناء المزيد من الفنادق الفاخرة. ولذلك يلح السؤال مرة أخرى: هل هذه الأبراج تعبر عن أعظم القيم الإسلامية: المساواة والبساطة والتواضع؟ من هنا تتبلور تساؤلات عن استدامة الأجواء الروحانية بالمدينة المقدسة تستدعيها هذه النوعية من المشروعات. فبعد لحظات من إتمام الصلاة في المسجد الحرام حيث تلتصق الأكتاف

بالأكتاف وتتلاشى كل الفوارق، ينتبه المصلون والمعتمرون والحجاج إلى واقع صادم، حيث تتطلع العيون فجأة إلى الأبراج التي تعيدهم إلى واقع يجسد غياب العدالة الاجتماعية حتى في أطهر بقاع بلاد المسلمين، وفي خلال نظام حكم يتبني الدعوة إلى مجتمع مثالي تتحكم فيه أخلاقيات الدين الإسلامي!

> «ذهبت إلى مكة عام ١٩٧٩م، ثم عام ١٩٩٩م، وبين هذين العقدين حدث الكثير ليغير المدينة المقدسة إلى الأبد، لقد فقدت المدينة الإحساس بالسلام. لقد عُرضت الأراضي حول أقدس أماكن الإسلام في المزاد ودُفِن التاريخ تحت أبراج زجاجية قبيحة، لا يمكن أن أتخيل أن يحدث هذا في أي مكان بالعالم، ولكنه حدث هنا في المكان الذي يدَّعي الحفاظ على الحرم المقدس، ولكنهم دمروا ١٤٠٠ عام من التاريخ في عدة عقود».
>
> (من تعليق حاج على تجربته الشخصية)

قدم (السيد ١٩٩٧) وصفًا مبكرًا لما يحدث في المدينة المقدسة ووصفه بأنه عملية نمو مربح ولكنها غير مبالية بقيمة المكان، وحذر من تسارع عمليات تحول المدينة من سياق مقدس إلى مدينة ضخمة مزدحمة متصارعة مزعجة تفقد كل المقومات التي ترتبط بالنطاق الروحاني الذي يتقاطر عليه المسلمون من كل حدب وصوب. ومن هذا المنطلق حذر من صعوبة استمرار المدينة المقدسة في أداء دورها الروحاني بنفس القدرة إذا استمر مسلسل التنمية الهادف للربح فحسب والذي تتداعى بسببه الأجواء الروحانية شديدة الأهمية في هذه المدينة. هذه الحركة الاستثمارية الرأسمالية في المدينة المقدسة هادرة وكاسحة، ففي العقدين الأخيرين استهدفت المشروعات الضخمة كل شئ في مكة حتى الجبال المحيطة بالحرم المكي. وأولها مشروع جبل عمر ثم تلاها مشروعات الشامية وجبل خندمة وجبل الكعبة، وتبعًا لمنشورات الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة، فإن أهم المشروعات وحجمها العمراني يمكن رصده في الجدول التالي:

المشروع	المساحة	العدد المستهدف
منطقة الشامية	٤٣٠ ألف متر مربع	٥٧ ألف نسمة
جبل خندمة	٢٥٠ ألف متر مربع	٣٥ ألف نسمة
برج الساعة والفندق الملكي	٤٠٠ ألف متر مربع	٢٥ ألف شخص

جدول رقم (٣)

مستنتج من بيانات الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة

من أوائل المشروعات العملاقة المتاخمة للحرم المكي، مشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير، وهو عبارة عن مجمع سكني تجاري حاول التعويض عن قياسه الضخم بمحاولة استدعاء الطابع العمراني والمعماري البصري التقليدي لمكة المكرمة وعمارة إقليم الحجاز عامة. وكان الحجم اللافت للمبنى بداية لمقياس جديد من الاستثمار العقاري الذي بدأ يتسارع تحت إغراء دورات الربح السريع من عوائد مواسم الحج والعمرة. وكما يفسر الباحث (فقيه ٢٠١١. ص ٨٨) فان استخدام الرواشين الخشبية على كامل الواجهات ساهم في القبول البصري للمبنى، كما سُوِّقَت فكرة أن المبنى هو إحياء للطابع المعماري الإسلامي للمدينة.

مشروع شركة مكة والاستخدام الاستهلاكي لمفردات ومعالجات تراثية في صياغة التشكيل الخارجي للمشروع. نلاحظ لافتات المحلات التجارية وعلامات مطاعم الوجبات السريعة.

ثم يأتي بعد ذلك مشروع برج الساعة على قمة أبراج البيت على رأس هذه المشروعات من حيث قدرته على تهديد الهوية الروحانية المقدسة للمدينة. فالمشروع بمكوناته المختلفة وقياسه اللاإنساني، يمثل رمزًا جليًا لاتساع الفجوة بين الغنيّ والفقير في المدينة الأكثر قداسة في الإسلام؛ مكة المكرمة. الأبراج هي عرض درامي للرأسمالية المتوحشة والفوارق المالية والطبقية المذهلة. أبراج البيت التي تعرف أيضًا باسم برج الساعة الفندقي الملكي يمكن رؤيتها من مسافة تتجاوز الثلاثين كيلومتر مجسدة تجاوزًا غير مسبوق في نسق العمران وخط السماء الذي ميَّز مكة المكرمة. هذا البرج هو ثاني أطول برج في العالم بعد برج خليفة بمدينة دبي، وطرازه هو خليط يثير التساؤل يجمع بين طرز ناطحات السحاب بمدينة شيكاجو بأوائل القرن العشرين، وبين طراز برج الساعة «بيج بين» الشهير في العاصمة البريطانية لندن. ومحتويات الأبراج تتمحور حول مجموعة متنوعة من الشقق والوحدات الفندقية والأجنحة رفيعة المستوى. أما الأكثر إيلامًا فهو أن هذه الأبراج تقف شاهدًا على تدمير موقع تراثي عالمي وهو قلعة أجياد العثمانية التي أزيلت بالكامل وبموافقة مسجلة بمراسيم ملكية. لقد تحول النسيج العمراني المحيط بالحرم المكي إلى منظومة من الفنادق الكبرى والمجمعات التجارية.

> «مجمّع يطاول أبنية العالم بأبراجه السبعة، ويعتبر من أكبر المشاريع المعمارية من حيث الكتلة البنائية. في هذا المجمع أنت على موعد مع خدمات استثنائية تتنوع بين مطاعم ومقاه تحمل لك أشهى الأطباق العالمية، ومرافق عالية المستوى لا مثيل لها في كلّ مكة، تشمل مركزًا طبيًا متكاملاً لتوفير كل ما قد تحتاجه من رعاية صحية أثناء إقامتك أو زيارتك، إضافة إلى مركز الملك عبد الله للعلوم الإسلامية لتزويدك بكل ما تحتاج من معلومات وفتاوى شرعية خلال رحلتك وعبادتك. وإذا رغبت في الاطمئنان على أهلك وأحبائك خارج المملكة، فلديك هنا أحدث التقنيات لتبقى على اتصال دائم بهم. أما المركز التجاري، فيقدم لك أرقى الأسماء والعلامات التجارية من خلال ٦٠٠ متجر متنوع، فلن تحتار في شراء أجمل تذكار من هذه الأرض الطاهرة لكل من ينتظر عودتك. في

إعمـار «رزيدنسز» بفيـرمونت مكة في أبراج البيت، خـطوات قليلة فقط، تنقلك من الدنـيا.. إلى أطهـر بقـاع الدنيـا. أهلاً بك في مـركـز الكون».

(من الكتيب الدعائي المشروع ص٢٤)

نلاحظ بوضوح في اللغة الدعائية للمشروع حجم التغييب والتضليل، والمحاولة المستميتة لربط هذا المستوى من الاستثمار باستمرارية الشخصية الروحانية والمقدسة للمكان. بل إن التضليل يصل إلى وصف المشروع بأنه الوسيلة التي تنقلك من الدنيا إلى أطهر بقاع الأرض ومركز الكون. أما تمويل المشروع والتدفقات النقدية الهائلة المطلوبة له فتثير تساؤلات مهمة. فالجهة الممولة للمشروع هي وقف الحرمين الشريفين، وهذا النوع من التمويل يقدم نموذجًا لتغليف اللامنطقي بغلاف من المشروعية والشرعية والمرجعية الدينية، ومن ثم تكمن صعوبة نقدها أو الاعتراض عليها، فمشروعات الوقف عادة ترتبط بكل ما هو خير للمجتمع الإسلامي ورقيه. كما أن المشروع تم تسويقه مجتمعيًا وإقليميًا كجزء من توسعة الحرم لزيادة الطاقة الاستيعابية له، وبالتالي ضمان وصول لعدد أكبر من الحجاج. وهذا التبرير ينضم إلى القائمة التي تستخدمها السلطات السعودية دائمًا لتمرير مثل هذه المشروعات عندما تصاغ في سياق تسهيل استيعاب مزيد من الحجاج والمعتمرين. كما مُنحت شركة بن لادن، وهي شركة المقاولات الأكبر والأغنى في المملكة السعودية، حقَ الانتفاع لموقع المشروع لفترة زمنية تتراوح ما بين ٢٠-٤٠ عامًا فلم يتضح إلى الآن العدد الفعلي لسنوات حق الانتفاع التي تم التعاقد على أساسها.

وكما يشير أهل المدينة القديمة فإن فكرة توسعة مكة المكرمة وتطويرها، وتبعًا لخبراتهم السابقة، لا تعني لهم إلا شيئًا واحدًا فقط، هو فقدان منزل العائلة. فبقطع النظر عن العوائد المالية التي قد تبدو مغرية، فإن كثيراً من أهل مكة التي تربطهم بها جذور تاريخية عميقة كانوا يفضلون استمرار إقامتهم في مناطقهم التي سكنوها بعد آبائهم وأجدادهم. ولقد تصاعدت الأبعاد المأساوية لهؤلاء بعد أن تبين أن التعويضات التي تبدو مغرية صعبةُ المنال حيث تتعرض لقواعد روتينية مطولة. وفي بعض الأحيان

يصعب التعويض بسبب تفتت الملكيات وغياب الوثائق الرسمية، وخاصة مع حالات وضع اليد، وإعمار الأرض التي كانت تتم بصورة عرفية وليست عن طريق آليات قانونية موثقة. وقد نجحت صحيفة الإندبندنت The Independent البريطانية في التحدث مع بعض أهل مكة القديمة حيث أكدوا عدم تعاطفهم مع ما يجرى فيها. ووصفت سيدة شابة حالتهم بعد أن هُدم منزل عائلتها في زمن قياسي وبفترة زمنية محدودة جداً متاحة لإخلاء المنزل، ومنَ ذلك الحين حتى الآن خرجوا إلى حوافّ مكة البعيدة ومازالوا ينتظرون التعويض عما عانته العائلة وعن فقدان منزلهم.

ولإيضاح حجم أعمال الهدم ومداها، نستعرض تصريحات المهندس عباس قطان مساعد أمين العاصمة المقدسة للمشروعات والتعمير، والمشرف على مشروع تطوير الساحات الشمالية للحرم المكي في مكة المكرمة، الذي أفاد أن إجمالي التعويضات المقدرة حتى الآن تجاوز حاجز ١٢٠ مليار ريال، لتعويض ٥٧٠٠ عقار تم نزعها في أربع مراحل. وأكد أن مؤسسة النقد صرفت نحو ٥٠ مليار ريال لمصلحة المرحلتين الأولى والثانية من المشروع. ولكن المرحلتين الثالثة والرابعة من المشروع لم يتم البدء بصرف تعويضات الملكيات المنزوعة فيهما، نظراً لعدم اكتمال وجاهزية ملفات وأوراق مُلاكها، وعدم تحديد التقديرات والأسعار من قبل لجان التقديرات. وأشار قطان إلى أن من الأسباب التي تُحدث التأخير في عملية الصرف للتعويضات، أن معظم صكوك الملكية لتلك العقارات صَكوك قديمة، وهناك الكثير منها غير مزروعة، وهي التي أقر الأمر السامي بعدم النظر فيها، إضافة إلى أن هناك تداخلات بين صكوك الملكية التي يجب أن تعالج من قبل المحاكم أولاً، وبين وجود تعطيل من قبل المحاكم بالنسبة لتعويضات الأوقاف التي يتطلب الأمر معها إيجاد البديل وإيجاد ناظر للوقف، ولوجود عقارات لا تملك الصكوك التي يتم التعامل معها من خلال صرف التعويض للأنقاض دون النظر للأرض. والخطورة في تعقيد عمليات التعويض التي أسلفناها سابقًا أنها تعني أن عمليات الهدم والإزالة لا تُسقط فصولاً من تاريخ المدينة المقدسة فحسب، ولكنها تخلق أيضا صراعًا إنسانيًا مرتبطًا بقيَم التعويض وتوقيتات صرفه وكيفية توطين ضحايا أعمال الهدم والإزالة (المصدر: شبكة العربية الإخبارية بتاريخ ١٨ مارس ٢٠١٣).

ولمزيد من تبرير أعمال الهدم والإزالة، استُخدم مصطلح عشوائية لوصف الأحياء الشعبية والتقليدية القديمة التي تضم مجتمعات متباينة اتخذتها موطنًا لها حول الحرم المكي منذ عقود بل قرون طويلة. فعلى سبيل المثال صرح أمين عام هيئة تطوير مكة المكرمة والمشاعر المقدسة الدكتور (سامي بن ياسين برهمين) أن المناطق العشوائية بمنطقة مكة المكرمة تمثل ٢٥٪ من مساحة عمران المدينة، مشيرًا إلى أن تعدادها قد بلغ ٦٠ حيًا بمساحة ٣٨كم وقال (برهمين): إن هذه الأحياء قد نشأت بوضع اليد. بينما فسر مساعد مدير شرطة العاصمة المقدسة كثرة الأحياء في مكة المكرمة إلى تنامي أعداد بعض الجاليات المقيمة بطريقة غير نظامية إثر إيواء المخالفين لنظام الإقامة لبني جلدتهم بتأمين المساكن وتزويدها بالخدمات بشكل مخالف وغير نظامي، مؤكدًا أن الأحياء العشوائية قد شكلت نسبة ٣٨٪ من إجمالي نسب الحوادث الجنائية المرتكبة بمكة المكرمة خلال العام ١٤٣٢ مما يستلزم وضع الحلول العاجلة للتصدي لظاهرة تنامي العشوائيات والحد من انتشارها. وفي ذات السياق، كشف مدير شركة الكهرباء بمكة المكرمة المهندس (وليد الغامدي) عن معاناة الشركة في المناطق العشوائية والمتمثلة في صعوبة الوصول إليها بسبب طرقها وممراتها الضيقة وصعوبة التعامل مع معدات الشركة أثناء انقطاع الخدمة أو أعمال الصيانة والطوارئ بسبب ضيق الشوارع، وتضاريس المنطقة وصعوبة دراسة الأحمال الكهربائية لهذه المناطق بسبب إنشاء مبانٍ عشوائية وغير مرخصة علاوة على زيادة الأحمال الكهربائية بشكل سنوي وبطريقة غير مدروسة. المدهش أن تركيز أعمال التطوير والتحسين بتكاليفها الباهظة ومعظم استثمارات الشركات الحكومية ومطوِّري البناء تتم في وسط مكة المكرمة، وعلى وجه الدقة في المنطقة التي تقع ضمن دائرة نصف قطرها كيلومترين حول «المسجد الحرام»، بينما يهمل تمامًا بقية مكة (بشير ٢٠١٠). ولعل مشاكل البنية الأساسية في المناطق حول مكة من ضمنها المرور والتلوث الجوي والسمعي ونقص المياه والكهرباء تثير مشاكل وتساؤلات جوهرية عن أولويات ومنهجيات التطوير المتبعة.

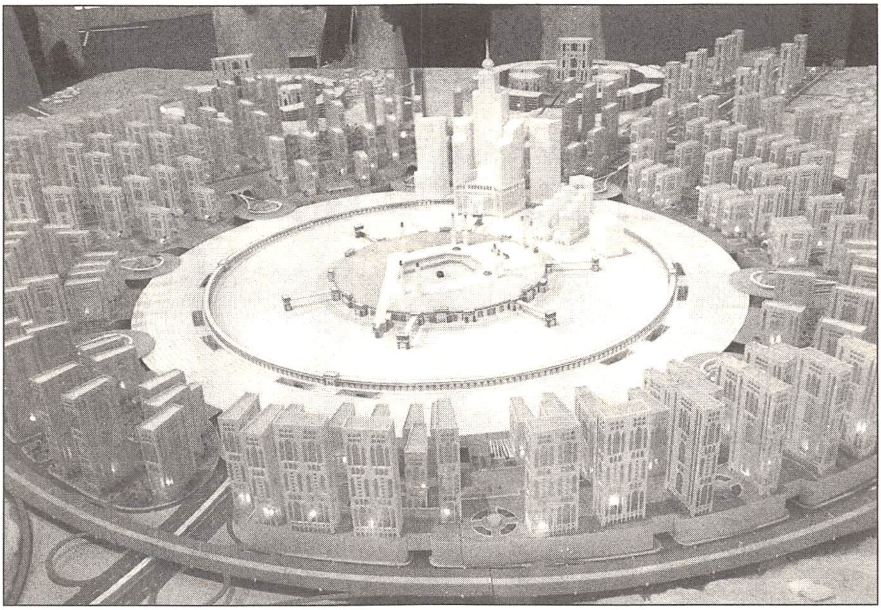

تركيز الاهتمام بالنمو العمراني والتحديث في الدائرة المحيطة بالحرم المكي: نموذج لأنماط العمارة والعمران حول الحرم.

على صعيد أخر، فقد قدمت ورشة عمل «دور ورؤى الأجهزة الحكومية والمطوِّرين في مشروع معالجة وتطوير المناطق العشوائية بمكة المكرمة»، والتي نظَّمها كرسيّ الأمير خالد الفيصل لتطوير المناطق العشوائية بمنطقة مكة المكرمة بالتعاون مع جامعة أم القرى والأمانة العامة لهيئة تطوير منطقة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة بتاريخ ٤/ ٢/ ٢٠١٣، رؤية مغايرة. حيث خلصت الورشة إلى أن يكون الجانب الاجتماعي من أولويات الأمور التي يجب الأخذ بها، خصوصًا من ناحية أحقية العمل والتعليم والإقامة النظامية و إعطاء الأولوية للجوانب الإنسانية والاجتماعية والحالات الخاصة أثناء التعامل في تطوير المناطق العشوائية ومشاركة فعلية للمالكين من المواطنين في عمليات التطوير بما يضمن لهم الاستقرار وضمان عدم ضياع حقوقهم. وكذلك خلصت إلى التعامل مع ساكني العشوائيات تعاملاً واحدًا رغم اختلاف جنسياتهم، وخاصة أولئك الذين عاشوا في مكة المكرمة منذ عدة عقود، وأن يُكوَّن فريق عمل لإعداد دراسة تفصيلية لحالات وإمكانات وقدرات السكان من خلال عقد عدة لقاءات مع سكان كل

منطقة على حدة وتحقيق المفهوم الاقتصادي في تطوير المناطق العشوائية، مع اعتبار الإسكان الميسر والإسكان البديل غير الاستثماري وعدم معالجة المناطق العشوائية في عملية تطويرها على أنها مشاريع استثمارية من الأساس.

> **«تعد مكة المكرمة أقدس بقاع الأرض التي شرفها الله بوجود بيته المحرم قبلة المسلمين في جميع أرجاء الأرض وهى المدينة التي جعلها الله مثابة للناس وأمنًا يأتون إليها من كل فج عميق. ومكة المكرمة بما حباها الله به من خير وشرف ورفعة تمثل مركز جذب قويّ للسكان والعمران والأنشطة الاقتصادية. وتعد البيئة العمرانية للمدينة هي الحيز المكاني التي تتفاعل في إطاره كافة هذه الأنشطة، وهي المرآة التي تعكس صورة المدينة أمام الزائرين لبلد الله الحرام».**
>
> من تقرير المخطط الهيكلي لمكة المكرمة - هيئة تطوير مكة المكرمة والمشاعر المقدسة.

أما وجهة النظر الرسمية، كما تظهر في تقرير المخطط الهيكلي للمدينة المقدسة، فتطرح منهجًا راديكاليًا لتطوير مكة، أو بالأحرى التخلص من المناطق العشوائية بها. حيث تفسر تنامي المناطق العشوائية كمحصلة ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها، ويغلب على هذه المناطق طابعها العمراني الرديء والسيئ، كما يسترعي الانتباه الخلل الكامن في التركيب السكاني لهذه المناطق حيث تعد مناطق جاذبة للوافدين وبخاصة المخالفين لنظام الإقامة والعمل بالمملكة العربية السعودية، وإجمالاً فإن سكان هذه المناطق من المواطنين والوافدين (النظاميين وغير النظاميين) من ذوي الدخل المنخفض ومستوى التعليم المتدني، وبالتالي فقد أصبحت عبئًا على المجتمع لعدم تجانسها ببقية أجزاء المدينة، ناهيك عن كونها مرتعًا للجريمة والفساد ومصدرًا مقلقًا لتهديد الاستقرار والأمن في المدن التي تنتشر بها المناطق العشوائية. وتعد منطقة مكة المكرمة من أكثر مناطق المملكة التي تشهد تخلفًا للوافدين بها جراء قدومهم لأداء العمرة أو الحج وانتشار هؤلاء الوافدين غير النظاميين في المناطق العشوائية بالمدن الرئيسية بمنطقة مكة المكرمة.

إن هيئة تطوير مكة المكرمة «The Mecca Development Authority (MDA)»، هي الجهة الحكومية الرسمية المسئولة عن وضع تصور التطور الاستراتيجي لمكة المكرمة والإشراف على جميع المشاريع الإنمائية ومشاريع التخطيط العمراني في المدينة. إلا أن الهيئة قد فعلت القليل حتى الآن في تحسين الواقع على الأرض. فمقاولو القطاع الخاص، لا سيما السعودية مثل مجموعة بن لادن (SBG)، يبدو أنها تملك الجزء الأكبر من سلطة صنع القرار - إن لم يكن كله - كما يطرح بعض النقاد والمحللين. مدفوعة برغبات لا متناهية في الربح الاستثنائي، أعطى المقاولون والمطورون في وسط مكة المكرمة الحد الأدنى من النظر في الاحتياجات الفعلية للحاج أو الزائر متوسط الحالة المالية، خلافًا لمزاعم الحكومة (بشير، ٢٠١٠). أما كافة الخدمات التجارية الجديدة فهي خاصة بالحجاج الأثرياء وتلبي احتياجاتهم، من المحلات التجارية الراقية والمطاعم في مراكز التسوق الحصرية، إلى غرف الفندق التي تبدأ عند ٧٠٠ دولار لليلة الواحدة والشقق التي تباع بما لا يقل عن ٣ مليون دولار. كم الأرباح المتوقعة أدى إلى التدافع لاقتناء الأراضي التجارية في وسط مكة المكرمة. مما أدى إلى زيادة أسعارها أكثر من عشرين مرة فقط في السنوات العشر الأخيرة، وبسعر متوسط يبلغ ٧٠٠٠٠ دولار للمتر المربع. مما أدى إلى التنافس الشديد بين الشركات المختلفة، ومن ثم أصبحت السيطرة على العملية التخطيطية والتنموية عملاً شديد الصعوبة.

من ناحية أخرى، فإنَّ حصر فكرة الحفاظ على الجانب الشكلي السطحي من التراث تتطلب مواجهة حقيقية حتى لا يتحول كل السياق المحيط بالحرم المكي إلى ديكورات مسرحية تستخدم فيها مفردات بصرية زخرفيه مبتذلة لإضفاء ما يسمى خطأ بالطابع الإسلامي للسياق. فعلى سبيل المثال صدرت قرارات رسمية بتغيير واجهات المباني بمكة المكرمة للحفاظ على الطراز المعماري الإسلامي، حيث وجه أمير منطقة مكة المكرمة، ورئيس مجلس التنمية السياحية، الأمير خالد الفيصل، بتغيير واجهات المباني المحيطة بالمسجد الحرام؛ لتتوافق مع الطراز المعماري الإسلامي لمكة المكرمة. كما تم تسويق التوجيه على أنه يراعي خصوصية العاصمة المقدسة من خلال إبراز التراث المعماري الإسلامي. وقد تحول هذا التوجيه إلى قرارات نافذة حيث تعاونت أمانة العاصمة المقدسة مع وزارة الشؤون البلدية والقروية لتوجيه المباني الفندقية التي هي قيد

الإنشاء حاليًا في مكة، والواقعة بالقرب من الحرم المكي الشريف، إلى العودة للطراز المعماري المكي القديم في شكل الواجهات، بعد أن بدأت الهوية المكية الإسلامية في الاندثار، وأخذت تتصف بملامح العمران الغربي الحديث تبعًا لتصريحات مدير فرع هيئة السياحة والآثار في مكة المكرمة محمد العمري المنشورة في صحيفة الشرق السعودية بتاريخ (٥ أكتوبر ٢٠١٢) كما اشترطت أمانة العاصمة المقدسة بدورها عند إصدار رخص البناء في المرحلة المقبلة، ضرورة مراعاة الطابع التراثي المكي في المباني المحيطة بالحرم المكي الشريف. بينما اعتبر رئيس اللجنة العقارية في الغرفة التجارية الصناعية بمكة، (منصور أبو رياش) أن الحفاظ على هوية مكة وخصوصيتها والنمط المعماري الإسلامي الذي اكتسبته منذ ١٤٠٠ سنة، أمر ملح، مشددًا بالإضافة إلى أهمية دراسة مواد تشطيبات الواجهات الرئيسية التي تبرز العنصر المكي فيها، حتى تتصف بالديمومة ومقاومة تغيير المناخ والطقس. نلاحظ هنا بوضوح الانفصال البيّن بين الحفاظ على الطابع المفتعل الذي تُغلّف به فنادق وأبراج الإقامة، وبين التركيز على جوهر ومضمون المكان وأدوات صيانة قدسيته ومقومات رسالته الروحانية والعقائدية.

أقرّ (مركز فقيه للأبحاث) في دراسته عن مكة المكرمة أنها ليست مدينة عادية، إنها أم القرى، وهي مهوى أفئدة المسلمين في شتى بقاع الأرض، يتجهون إليها في صلاتهم، وتحنُّ إليها قلوبهم، ويتطلعون لزيارتها ولو مرة واحدة في العمر. وتظل ذكراها وأثرها النفسي وشتى معالمها حية في وجدان من تشرّف بزيارتها، تستثير في نفسه أنبل المشاعر وأصفاها وأسماها. وبناء على هذا الفهم لقيمة المدينة طَرَحت الدراسة البحثية التي قام بها المركز تساؤلاً جوهريًا: هل البيئة العمرانية حول الحرم المكي الشريف شيء يغذّي هذه الأحاسيس النبيلة في نفوس الزوار والمعتمرين؟ وهل أصبحت مكة المكرمة: بيئة معمارية «مشوهة»؟

وقد أشارت الدراسة البحثية الميدانية إلى قضايا هامة كإهمال تخطيط وصيانة وتطوير كل ما هو خارج المحيط الظاهر على الشوارع الرئيسية مما أدى إلى نشوء تجمعات سكنية معزولة، كما توضح الدراسة أن المعالجة المعمارية الغريبة لواجهات المباني البعيدة عن التراث المعماري المكي المتميز، تسبّب نوعًا من التلوث البصري للمنطقة بسبب التباين الواضح في معالجة الواجهات. فقد تحولت بعض الشوارع مثل

(خالد بن الوليد) الذي تقوم على جوانبه كثير من العمارات والفنادق، إلى ما يشبه مراكز المدن في الدول الأوروبية. وكشفت الدراسة عن تباين عجيب في معالجة واجهات المباني، وبُعد الكثير منها عن ملامح وسمات العمارة المكية المميزة، مما يستلزم وضع الشروط اللازمة للالتزام بعناصر ومفردات التراث العمراني في المنطقة شكلاً ومضمونًا. ومن المسلَّم به أن العمائر والمجمعات السكنية والأبراج والدور على اختلاف أسمائها في المنطقة المحيطة بالحرم المكي الشريف يسكنها أساسًا الحجَّاج و زوار البيت العتيق، مما يستلزم أن تكون لهذه المباني مواصفات خاصة.

إلا أن الدراسة اعتبرت أيضًا أن خصوصية النسيج حول المرتفعات المحيطة بمكة وفوقها ما هو إلا نطاق عشوائي يجب التخلص منه. بل إن الدراسة انتهت في توصياتها بوجود عدد كبير من المباني القديمة المتهالكة ليست لها أي قيمة معمارية أو تراثية، تحتل مسطحات صغيرة على بُعد خطوات من الحرم المكي الشريف، يمكن تجميعها من مساحات ضخمة وتطويرها في مشروعات كبرى على غرار مشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير. كما أن التوجه الاستثماري العقاري الكمي تحكَّم في بلورة مزيد من التوصيات التي تتحدث عن بعض المباني التي تحتل مواقع متميزة على مقربة من الحرم الشريف، ورغم أن حالتها ليست سيئة إلا أنها لا تقدم خدمة كبيرة في مجال الإسكان، أي أنها غير مستغَلَّة الاستغلال الأمثل. ومع كثرة هذه الفئة من المباني وانتشارها حول الحرم الشريف فإن الأمر يتطلب ضرورة تجميع هذه المسطحات صغيرة المساحة لإقامة مشاريع كبرى يمكن أن تقدم خدمات أكثر وأفضل للحجاج والمعتمرين. مرة أخرى تدعو الدراسة إلى المشاريع الأكبر والأضخم مدخلاً مفضلاً للتعامل مع تطوير وتنمية مكة المكرمة.

بل إن الدراسة تصل إلى استنتاج مثير للجدل، وهو إقرارها أن التوسعات التي تم إنجازها حول الحرم والأنفاق وخاصة نفق (السوق الصغير)، تعتبر بكل المقاييس عملاً حضاريًا هائلاً يمثل الصورة التي يجب أن تكون عليها المنطقة المركزية حول الحرم. ولقد جاء مشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير الذي يعلو هذا النفق، رغم ما قد يؤخذ عليه من مآخذ (وهو أمر طبيعي في أي مشروع رائد من هذا النوع) ليمثل محاولة رائدة

وشجاعة لتطوير المنطقة والارتقاء بها إلى أعلى المستويات الحضارية التي تتناسب مع جلال المكان وقدسيته. وفي الوقت ذاته لا تتمكن الدراسة من تقديم تفسير كيف يصبح هذا المشروع نموذجًا متناسبًا مع قداسة وروحانية مكة المكرمة.

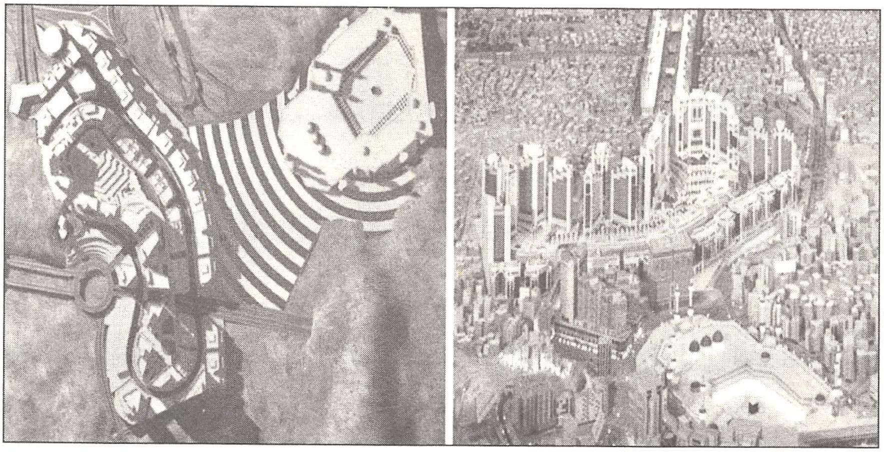

مقترحات التنمية في السياق المحيط بالحرم المكي: مزيد من الأبراج لحصار الروحاني والمقدس.

الجدير بالذكر في هذا السياق انه تبعًا لتفسيرات الأئمة والشيوخ السعوديين، فإن المواقع التاريخية والمزارات تشجع «الشرك» - خطيئة الوثنية أو الشرك - وينبغي تدميرُها. والموثق تاريخيًا أنه عندما اجتاحت قوات آل سعود مكة المكرمة في العشرينات من القرن الماضي، كان أول ما فعلوه هو التخلص الكامل من المقابر التي تتضمن رفات عدد هام من الشخصيات الإسلامية المؤثرة في تاريخ الدين والمدينة. تم تدمير التراث في البلاد منذ ذلك الحين. عندما استولى آل سعود الوهابيون على مكة في العشرينيات من القرن الماضي، قاموا بتدمير القبة أعلي المسكن الذي ولد فيه الرسول (بيت المولد). وتحول الموقع لسوق للماشية حتى اعترض بعض أهل مكة ثم تحوّل المكان إلى مكتبة. وهناك تخوف من أن التوسعة الجديدة ستزيل المكان تمامًا وهو الأمر الخطير وخاصة أن الموقع لم يفحص أثريًا أو تجرى به الحفريات المناسبة لكشف قصص قد تكون مختفية تحت تربة هذه البقعة الفريدة. حتى المسجد النبوي في قلب المدينة المنورة هو أيضًا معرض للخطر بسبب التفسيرات الدينية. ففي عام (٢٠٠٧م)

نشرت وزارة الشئون الإسلامية بالمملكة السعودية كتيبًا لاقى دعم عبد العزيز الشيخ المفتي الكبير، وينص الكتيب على أن القبة الخضراء أعلى مسجد الرسول سيتم هدمها كما أن القبور الثلاث الخاصة بالنبي محمد رسول الله وصاحبيه: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، سيتم تسويتها بالأرض للتطابق مع المفهوم الشرعي للقبور في المجتمعات الإسلامية.

صراع القيم العقارية والقيم التراثية

«لا يوجد أكثر أهمية من إدراك أن ما تبقى من مدننا التاريخية، ومواقعنا وأماكننا المقدسة في غاية الأهمية، ليس فقط للهوية المحلية أو التوثيق التاريخي، ولكن لأجل هويتنا كبشر».

(سيد حسن نصر ٢٠٠١، ص ١٠)

من أهم القضايا التي يطرحها الإطار الحالي لتوسعة وتطوير الحرم المكي، هي تأثير ودلالة وأهمية القيم التراثية، وكيفية الحفاظ عليها وسط تسابق محموم لإعلاء القيم العقارية ومرجعيتها الرأسمالية القاسية. هناك حوار متكرر على المستوى الرسمي خاصة يؤكد على الأهمية الكبرى في الحفاظ على هوية مكة المكرمة، وأن جزءًا مهمًا من سياسات الحفاظ هو الاهتمام بصيانة القيم التراثية المادية واللامادية التي تصوغ المقومات المختلفة لشخصية هذه المدينة المقدسة. المثير للدهشة أنه في إطار هذا المنهج الذي يدعو إلى الحفاظ وأهمية صون النطاقات ذات القيمة، فإننا نتوقف أمام تاريخ الموقع الذي أقيم عليه مشروع أبراج آل البيت وبرج فندق الساعة الملكي.

«لا يملك أحد الحق للتدخل في كل ما يجيء تحت سيطرة الدولة، هذا المشروع هو لفائدة المسلمين في كل أنحاء العالم».

وزير الشئون الإسلامية السعودي معلقًا على قرار هدم القلعة وبناء أبراج الساعة مكانها بعد هدمها الكامل وإزالة التلال التي بُنِيَت عليها.

في بداية شهر يناير من عام (٢٠٠٢م) أقدمت السلطات السعودية على هدم قلعة أجياد التي تقع على تلال البلبل المُطلّة على المسجد الحرام، وذلك لإعداد موقعها ليخصص للمشروع الاستثماري الذي اعتمده الملك (فهد) في نهايات عام (٢٠٠١م)

والذي تبلغ تكاليفه ٦ بليون ريال سعودي . وهذه القلعة التي تعود بتاريخ بنائها إلى العام (١٧٨٠م) بنيت في هذا الموقع بمعرفة العثمانيين لحماية الحرم المكي من بعض القبائل المتمردة التي كان بعضها ينتمي للطائفة الوهابية . وقد أحدث قرار الهدم السريع والمفاجئ للقلعة أزمة دبلوماسية بين السعودية وتركيا ، خاصة عندما شبهت السلطات التركية هذا التصرف بأنه لا يقل بشاعة عن هدم طالبان لتماثيل بوذا في أفغانستان والتي كان عمرها ١٧٠٠ عام .

«تمامًا كما دمر طالبان تماثيل بوذا، السعوديون يسعون وراء إزالة كل الآثار التي تذكر بتراثنا».

(استميهان تالاي - وزير الثقافة التركي، يناير ٢٠٠٢)

كانت صدمة أهل مكة كبيرة عندما هُدمت القلعة ، وخاصة بعد وعود الحفاظ الأولية التي أُعلنت في بعض الصحف المحلية ومن مطوِّري المشروع الجديد في تصريحاتهم . هذه القلعة تَعني لنا الكثير فقد اعتدنا رؤيتها تذكرنا بتاريخنا وتاريخ مدينتنا» .

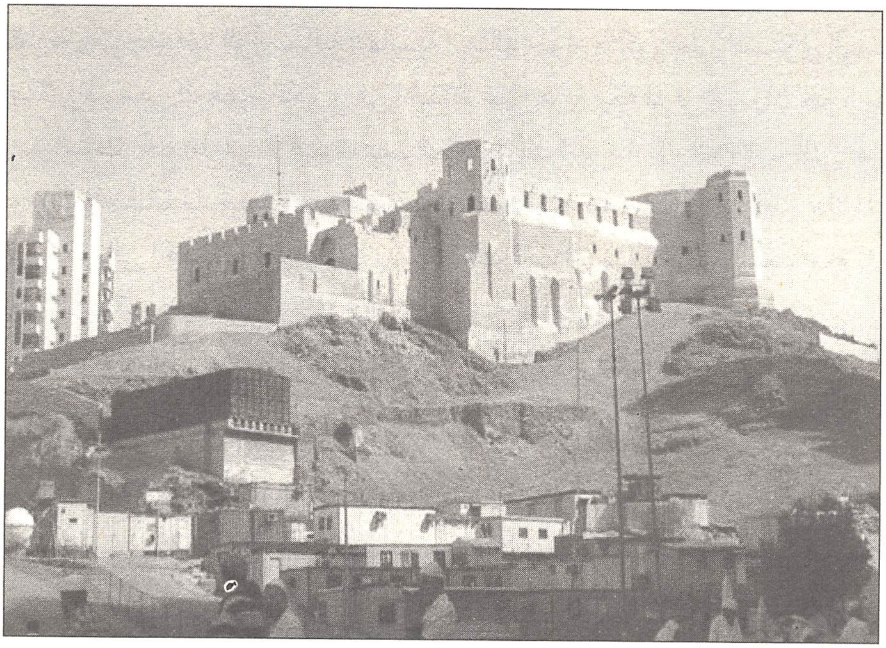

قلعة أجياد التاريخية التي بنيت عام ١٧٨١ والتي تم هدمها في ساعات محدودة للسماح لأبراج البيت العملاقة وبرج ساعتها الأسطوري في احتلال مكان القلعة التاريخية الأثرية.

صراع مشاريع التوسعة في مكة: بناء المستقبل أم هدم للتاريخ؟

بصورة متكررة تم تدمير الكثير من الكنوز المعمارية التراثية التي تعود للحقبة العثمانية وتتضمن المنازل والقلاع والمقابر حيث تم التضحية بها لمشروعات التطوير في مكة والمدينة. ولكن حالة قلعة أجياد أثارت موجات غضب داخلية صامتة وخارجية بدأت من تركيا ووصلت إلى منظمة اليونسكو. حيث كانت القلعة من المباني القليلة جداً المتبقية والقريبة من حافة المسجد الحرام في مكة المكرمة. وناشد رئيس البرلمان التركي (مراد سوكمين غلو) الحساسيات الدينية والقومية، واصفاً الإجراءات السعودية بأنها «غير إسلامية». وأوضح (سوكمين) على موقع الإذاعة البريطانية - الشرق الأوسط تحفظه الشديد بلغة قاسية:

> **«تدمير بلد مسلم للتراث التاريخي لبلد آخر على الأراضي المقدسة هو سلوك آثم وخرق القيم الأخلاقية في الإسلام، والأخوة الدينية والمنطق العام».**

كما وصف (كاريل بيرترام Carel Bertram)، أحد مؤرخي الفن العثماني في جامعة تكساس هدم القلعة بأنه «تصرف طائفي جداً». كما ندد بخطط السلطات السعودية التي تهدف إلى «محو الماضي» وقالت إن الهدم جزء من جهد أوسع نطاقاً من النخبة الوهابية المهيمنة في المملكة العربية السعودية لمحو أي عنصر متبقٍّ من التنوع الثقافي والديني في العالم الإسلامي. «إنها طريقة للمذهب الوهابي لإظهار أنه لا يوجد أي شكل من أشكال الإسلام - على أرض الواقع، في الماضي، أو في ذكريات الإنسان - غير رؤيتهم ومذهبهم وتفسيرهم».

بدافع التعصب الديني أحياناً، والتوجه الرأسمالي الربحي أحياناً أخرى، نفذت السلطات السعودية حملات هدم هائلة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، بعد وصولها إلى السلطة في العشرينات من القرن الماضي، ومرة أخرى في السبعينات. ففي عام (١٩٢٤م)، هدمت السلطات السعودية معظم المساجد التاريخية والمعالم الأثرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وعلى الرغم من احتجاجات من جانب اليونسكو والدول

الإسلامية الأخرى فقد دمروا حتى بيت النبي محمد ﷺ في مكة المكرمة ومئات من أضرحة الصحابة. وكما أسلفنا فقد نجت قلعة أجياد من ذلك الهدم الجماعي لمدة عقود، حتى لاقت نفس المصير عام (٢٠٠٢م). وتتفاقم المشكلة كل يوم حين تفقد المدينة كل مقوماتها الروحانية ويُصدَم من لبَّى نداء ربه وجاء إليها مستبشرًا بتجربة فريدة في أم القرى وأحب بلاد الله إلى الله كما قال رسوله الكريم ﷺ ويتدفق الحجاج إلى مكة المكرمة لتأدية مشاعر الحج، والسير على خطي النبي محمد ﷺ، ولكن هناك القليل من ميراثه الإنساني، أو دلالات حياته الزاهدة التي اعتنقها، مازال باقيًا في أقدس مدن الإسلام. حيث يستمر التخلص من كل ما هو أثري تاريخي يسرد قصة نضال عَقَدي متفرد في تاريخ البشرية كلها.

«السلطات تحاول تدمير أي شيء في مكة المكرمة يرتبط بحياة النبي، إنهم بالفعل هدموا منزل زوجته وحفيده ورفيقه، والآن قادمون لمسقط رأسه. ومن أجل ماذا؟ المزيد من الفنادق السبعة نجوم».

(عرفان العلوي، مدير مؤسسة بحوث التراث الإسلامي، لندن).

تتعدد الحالات التي تؤكد المفهوم الذي قدمه (العلوي) في طرحه السابق، وتحذيره من الثمن البخس الذي يُدفَع أمام خسارة تراث مقدس لا يُعَوَّض. على سبيل المثال نتوقف أمام حالة صارخة من حالات التراث المهدد. فعند سفح جبل خاندمة إلى الغرب من المسجد الحرام، بُنِيَت هذه المكتبة الصغيرة لتخليد الموقع الذي وُلد به الرسول حتى أنها عرفت محليًا باسم «بيت المولد النبوي». لقد تم هدم الأحياء التي يتجاوز عمرها قرونًا لمواصلة مسيرة الأبراج الفندقية. المكتبة هي التالية في مسلسل الهدم حيث تعوق في موقعها الحالي، مخططات لمواقف سيارات تحت الأرض، و امتدادات خطوط المترو اللازمة للتعامل مع التدفق الضخم من الزوار، المرتب لها أن تصل إلى ١٧ مليون سنويًا بحلول عام ٢٠٢٥ (م. وينرايت ٢٠١٣).

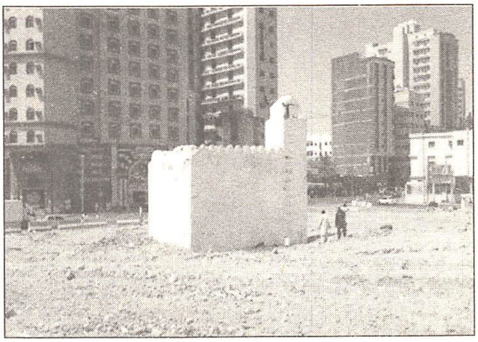

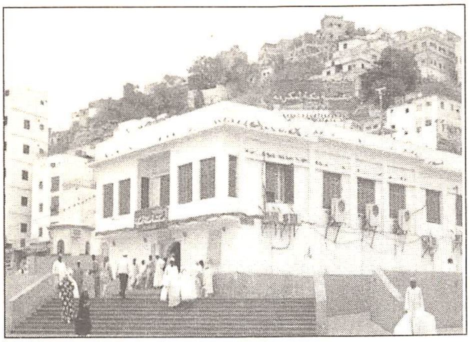

المكتبة موضع مولد الرسول وبئر المياه والاقتراب الوشيك من نهاية فصل آخر من تاريخ المدينة المقدسة

(تصوير : عرفان العلوي ٢٠١٣).

وكما لو كان استباقًا لأي احتجاج متوقع، يحمل المبنى الآن علامة في خمس لغات يعلن: «ليس هناك أي دليل على أن النبي محمد ﷺ ولد في هذا المكان، ولذلك فإنه من المحظور جعل هذا المكان مخصصاً للصلاة، أو التضرع، أو الابتهال إلى الله. مثال آخر هو بئر ماء عمره ١٤٠٠ عامًا، يقف الآن وحيداً كجزء من التراث المهدد بالانقراض وسط أرض مهدمة مليئة بالأنقاض. قد هُدم كل ما حول البئر لتشغله مشروعات للفنادق الجديدة، وتُرك وحيداً ينتظر مصيراً أصبح شبه محتوم. يضع (العلوي) هذه الإجراءات في سلسلة ما يصفه بأعمال «التخريب الثقافي». وهي أعمال أقرتها الدولة وبررتها بأن المواقع التاريخية والتبجيل المبالغ للرسول مشجع على الوثنية الآثمة.

الفصل الرابع:

مكة المكرمة ولاس ڤيجاس: تنويعات على لحن واحد

«هي مدن ظاهرها رموز، مدن خفيّة لا تُرى، والغريب فيها أنّها تفتقر إلى الصلابة، إلى المادّة في تكوينها. هي مدن أشكال وأصوات وحركات، مدن تشعر بوجودها ولا تراها»

(كالفينو ٢٠١٢. ص ٨٨)

تمهيد

وضعت الفصولُ الثلاثةُ السابقةُ مكةَ المكرمة في سياقها التاريخي والجغرافي والقدسي، كما بلورت العلاقةَ الأبديةَ بين العمارة والعمران وبين القداسة والأجواء الروحانية التي يتطلع إليها الإنسان ليشبع حاجاته الروحانية والعقيدية. كما ناقشت موقع مكة من إشكالية العولمة والرغبة الجارفة في صياغة نموذج جديد لتنمية المدن الخليجية ليجد لها موقعًا على خارطة مدن العالم الجديد.

يتناول هذا الفصل الأبعاد الأكثر جدلاً في المشروع النقدي لمشروعات التنمية والتطوير حول الحرم المكي، والتي تمثل الأطروحة الأساسية للكتاب. وهنا تبرز محاولة الكتاب لتجاوز فكرة عدم ملاءمة المداخل التنموية والمناهج الاستثمارية المطبقة في مكة المكرمة لطبيعة المدينة وقيمتها المقدسة. ولكن الفصل يصوغ دراسة مقارنة بين مدينة مكة المكرمة ومدينة لاس فيجاس الأمريكية. هذه الدراسة المقارنة تؤكِّد التحولات الحادثة في صورة مكة المكرمة، وتفسِّر الأدوار التي يلعبها رأس المال البترولي. وكما جاء في افتتاحية الكتاب فإن عقد المقارنة بين مكة المكرمة المدينة المقدسة، وبين لاس فيجاس، عاصمة القمار العالمية مثَّل صدمة من الصدمات الأربع الرئيسية التي دفعتني إلى تحويل هذه المشاهَدات إلى قضايا بحثية أنتجت هذا الكتاب.

وبصورة أكثر تركيزًا فإن الفصل يُعنَي بعقد دراسة مقارنة لآليات التنمية ومخططات التعمير والتطوير التي تتبناها المدينتان. وتتم هذه الدراسة من خلال التعامل مع خمسة مبادئ تم رصدها تتجلى بوضوح في صميم العملية التنموية والتخطيطية في كلا المدينتين. بما يجعل التقارب في منهجية تطويرهما يتقارب ويتشابه، بل ويتطابق بوضوح أحيانًا تاركًا العديد من علامات الاستفهام على الأسباب التي دعت إلى هذا المستوى من التوافق والتطابق بين مدينتين تختلف كل منهما اختلافًا جذريًا عن الأخرى على عدة مستويات أهمها النشأة والتطور والهُويَّة.

والخمسة المبادئ أو العوامل التي تَنسِج بوضوح طبيعةَ التشابه المثير للتساؤل والدهشة بين المدينتين هي:

أولاً: العوامل التي تتضمن إشكالية القيم العقارية أو بالأحرى القيم الأراضي غير المسبوقة في باقي أنحاء العالم.

ثانيًا: منطق هدم المشروعات واستبدالها، واتباع المدينتين لنمط خاص من حيث التسارع على هدم ما بُني حديثًا واستبداله بما هو أكثر حداثة وجلبًا للأرباح الطائلة، مهما كانت فداحة الخسائر التي تولدها أعمال الهدم.

وثالثًا: مفاهيم التوجه للإبهار والمقاييس الضخمة في العمارة والعمران.

أما العامل الرابع: فهو سيطرة الأبراج والتنمية الرأسية على الصورة البنائية في المدينتين.

وأخيرًا: فكرة التعامل مع المقدس، إما باستحضاره أو بالمساعدة على إحضاره، والإساءة البالغة لقيمه وقيمته. إن التطابق في الأفكار التنموية والمفاهيم الاستثمارية بين مدينتين تختلفان جذريًا في رسالة كل منهما، يدق ناقوس الإنذار لما يمكن أن تصل إليه حال مكة المكرمة؛ قبلة الملايين من المسلمين.

في فهم مرجعيات التنمية، قصة مدينتين

دعنا نبدأ التحليل المقارن برصد التشابهات والتطابقات بين الظاهرتين التنمويتين في المدينتين مكة المكرمة ولاس ڤيجاس، والتي يمكن بلورتها فيما يلي:

القيمة العقارية والدورة الاستثمارية

تتفق مدينتا مكة و لاس ڤيجاس في أنهما تشكّلان المنطقتين الأكثر قيمة، في العالم بأسره، من حيث متوسط أسعار الأراضي، فقد أوضح (أسامة البار) أمين العاصمة المقدسة، أن أعلى سعر للعقارات في مكة المكرمة، كان للأراضي القريبة جداً من المسجد الحرام، وذلك كان في مشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين للحرم المكي الشريف، حيث بلغ سعرها ٥٥ ألف ريال سعودي للمتر المربع، بما يعادل ١٨ ألف دولار للقدم المربع، وهو أعلى الأسعار على مستوى العالم. ويعني هذا أيضًا أن سعر المتر المربع يبلغ قرابة مائتي ألف دولار، وهو بالقطع الأعلى في الشرق الأوسط، بل إنه بالقطع أعلى سعر لمتر أرض فضاء في العالم بأسره. أما مدينة لاس ڤيجاس فتنفرد باقترابها من الأرقام القياسية التي تحققها أراضي البناء والعقارات المحيطة بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام. فتبعًا لبيانات عدة مؤسسات بحثية واستثمارية متخصصة في الاستثمار العقاري فإن سعر المتر بلغ قرابة ٨٥٠٠ دولار أمريكي. و ينطبق هذا الرقم على قطع الأراضي والعقارات الواقعة مباشرة للمحور الرئيسي لمدينة لاس ڤيجاس Las Vegas City Strip، وهي المنطقة التي تَقع بها المشروعات الضخمة ذوات بلايين الدولارات والتي تضم أفخم كازينوهات القِمار بالعالم بفنادقها الأسطورية.

الذي يسترعي الانتباه في حالة مدينة لاس ڤيجاس أن أسعار العقار تتعرض للتغير، وأحيانًا للهبوط، مثل ما حدث، بتسارع غير مسبوق، بعد الأزمة الائتمانية المالية العالمية عام ٢٠٠٨. تلك الأزمة التي ألقت بظلالها على عدة مشروعات عملاقة تُطلّ على المحور الرئيسي للمدينة أو ممر الترفيه الأول في العالم (Resort Corridor) مما أدي إلى تأجيلها أو إيقافها تمامًا. كما أن هذه الأزمة المالية أنقصت معدلات السائحين الذين يتدفقون على مدار العام إلى المدينة وأثرت على معدلات إنفاقهم. هؤلاء الزوّار أو السائحون يمثلون العمود الفقري لنمو المدينة وانتعاش مشروعاتها وقيم عقاراتها.

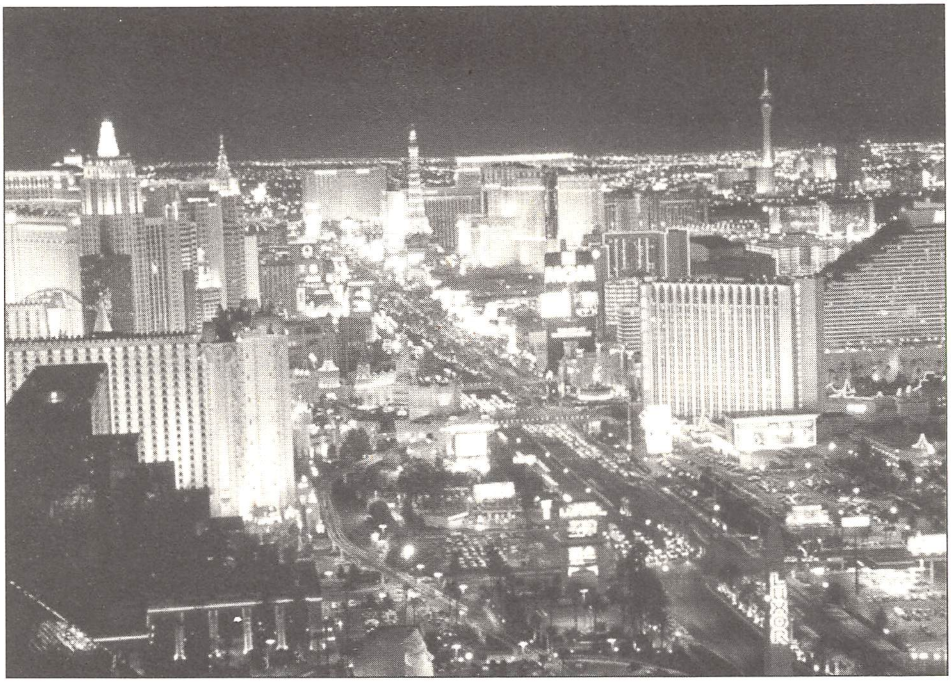

النمو المبهر على محور مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي

قد يكون من المفهوم حقيقة الارتفاع الخيالي في أسعار قطع الأراضي المطلة على محور مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي . فكل قطعة أرض هي في الواقع إمكانية استثمارية هائلة بها أعلى الضمانات لتحقيق الربح الوفير والسريع . والتشريح المعماري لكل هذه المشروعات يكاد يكون متطابقًا ، فالأدوار الأولي تشغلها صالات القمار بأنواعها المختلفة يتوافق معها المجمعات التجارية وقاعات العروض . بينما تستغل الأدوار العليا في الاستعمالات الفندقية التي تستقبل الأثرياء والمغامرين ومدمني الأدرينالين الذي يثيره وقع فيشات القمار ودورات عجلة لعبة الروليت الشهيرة .

وعندما نلحظ نفس التوجه الاستثماري تتبناه المدينة المقدسة مكة المكرمة ، يتبلور السؤال الجوهري : لماذا تشترك هاتان البقعتان المتناقضتان في هذه الصفة؟ الأرقام والإحصاءات توضح أن العائد المتوقع من المتر المربع في المنطقتين يقدم تفسيراً كاملاً ومقنعًا للارتفاع المذهل في أسعار الأراضي بالمنطقتين . فقطعة الأرض تعني في لاس

ڤيجاس تطوير فندق جديد للقمار أو بالأحرى ماكينة لتوليد البلايين. بينما تعني في مكة فندقًا له إطلالة «فريدة»، من حجراته وأجنحته، على الحرم المكي، كما تشير الحملات الإعلانية لشركات العقار المطوِّرة للأراضي المتاخمة للحرم، وبالتالي يصبح أيضًا ماكينة لتوليد البلايين. حيث تصل أسعار الوحدات العقارية وإيجارات الغرف الفندقية وعقود استغلال المسطحات التجارية في الأبراج المحيطة بالحرم المكي، إلى أسعار غير مسبوقة إقليميًا أو عالميًا. إن دورة الأرباح التي يمكن توليدها من الاستثمار العقاري في المنطقتين في خلال عام واحد، لا يوجد لها أي مثيل في كل نطاقات الاستثمار العقاري من موسكو وبكين إلى برلين ولندن وباريس مرورًا بالعواصم العربية. حتى في إمارة دبي الواثبة بخطوات واسعة نحو التحديث، فإن متوسط أسعار الأراضي في شارعها الرئيسي المعروف باسم شارع الشيخ زايد تبلغ ٥٥٠٠ دولار للمتر المربع وذلك للأراضي ذات التميز والمجاورة للمشروعات الهامة على امتداد الشارع.

الهدم هو الحل: نموذج البلدوزر في التنمية

تشترك المدينتان، أو بالأحرى منطقتا الاستثمار العقاري بهما، اشتراكًا لافتًا في مفهوم حاكم لمنطق التنمية، وهو أيضًا مرتبط بالنقطة الأولى: القيمة العقارية، وهذا المفهوم يمكن تلخيصه في أن الحل المثالي للتنمية هو الهدم ثم الهدم ثم الهدم. أو اتباع «نموذج البلدوزر في البناء»، والذي يعتمد على إزالة كل ما هو قائم والتمهيد لبناء الجديد والمبهر. من هذا المنطلق فإن تتبع المشروعات المحيطة بالحرم أو المشروعات المحيطة بشارع مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي، يوضح جليًا ظاهرة تكرار هدم مشروعات عملاقة لم يمرّ على بنائها سنوات معدودة تمهيدًا لبناء مشروعات أكثر ضخامة وبالتالي أكثر ربحًا وإدرارًا لملايين الدولارات. فعلى سبيل المثال فإن حوالي ٧٠٠٠ من الوحدات العقارية تم هدمها في مكة المكرمة فقط في عام (٢٠١٢م) لإفساح المجال أمام أعمال التوسيع للمسجد الحرام والتنمية المستقبلية للمدينة المقدسة بما فيها من مواقع تاريخية ومقدسة كما طرحنا سابقًا. ومفهوم الهدم هنا وثيق الصلة بالقيم العقارية غير المسبوقة في كلتا المنطقتين. الهدم هنا يعني أن الدورة الحياتية للمبني محدودة للغاية. وقد أتاحت المتغيرات التقنية والطاقات الاستيعابية المرغوبة أو مرونة القوانين الدائمة،

أو انتصار النفوذ المساند للرغبة في مزيد من الأرباح الأسطورية، أتاحت فرصًا ضخمة لهدم المباني والمشروعات واستبدالها بمعدلات متسارعة، غير قابلة للاستيعاب.

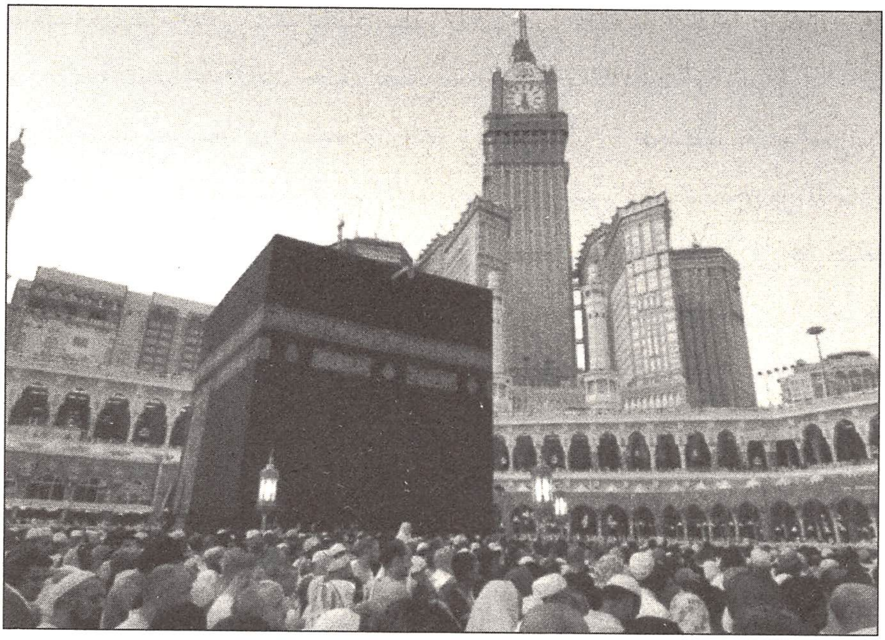

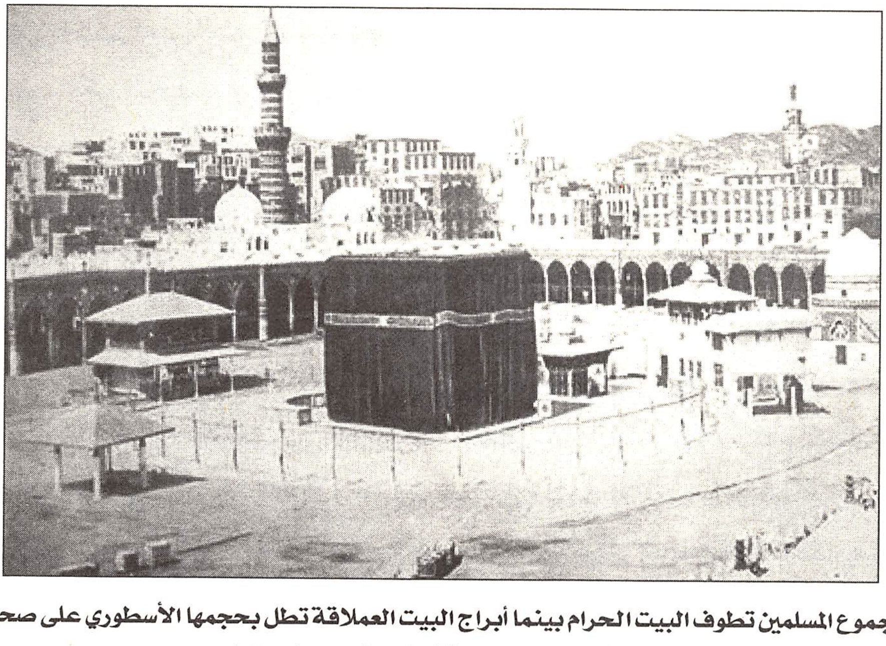

جموع المسلمين تطوف البيت الحرام بينما أبراج البيت العملاقة تطل بحجمها الأسطوري على صحن الكعبة، والصورة المقابلة توضح الحرم عام ١٨٨٠م.

ما يعنينا هنا في هذا السياق، هو علاقة ما يحدث من تنمية حول الحرم المكي بمنطق احترام البيئة بمفهومها الشمولي، والبنية المستدامة بأبعادها المتعددة والمتداخلة اقتصاديًا واجتماعيًا وبيئيًا. إن القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، طرحت محاور متعددة لفهم البيئة فهمًا عميقًا ومقدسًا يجعل من الحفاظ على مواردها ليس فقط تصرفًا إنسانيًا وأخلاقيًا، ولكنه أيضًا نوع من التعبد والتقرب من الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يتناقض تناقضًا جذريًا مع أسلوب الهدم غير المبرر الذي يستنزف الموارد ويضحي بالكثير من القيم التراثية والتاريخية.

مشروع التطوير البالغ مساحته قرابة نصف مليون متر مربع، يجري بناؤه لاستيعاب ١,٢ مليون حاج إضافي، وبالتالي يتحول «المسجد الحرام» إلى أكبر منشأة دينية في العالم. ولكن «مؤسسة التراث الإسلامي» Islamic Heritage Research Foundation قامت بتجميع قائمة بالمواقع التاريخية الرئيسية التي يعتقدون أنها هي الآن في خطر من التطوير المستمر لمكة المكرمة، بما في ذلك الأقسام العثمانية والعباسية القديمة من «المسجد الحرام»، والبيت الذي وُلد النبي ﷺ كما ذكرنا سالفًا وبيت عمه حمزة بن عبد المطلب. فقد أصبحت الآثار العثمانية القديمة في المسجد الحرام بمكة، بالمملكة العربية السعودية، جزءًا من معارك تدور رحاها بين من يطالبون بالحفاظ على الآثار التاريخية للمدينة، وبين السلطات التي تدفع نحو عمليات التوسعة وتطوير أماكن العبادة. فهذا الأثر العثماني الذي يعود إلى القرن السابع عشر، وأحد أقدم الأجزاء المكوّنة للمسجد الحرام، ستتم إزالته كجزء من عمليات التوسعة التي يشهدها المسجد لزيادة عدد المصلين فيه.

اتهم (عرفان العلوي)، مؤرخ سعودي مقيم في لندن ورئيس مؤسسة التراث الإسلامي التي تعمل على حماية المواقع التاريخية في السعودية، اتهم السلطات السعودية بالتسبب فيما أسماه «التخريب الثقافي» للمدينة، مستندًا إلى أن أجزاء كبيرة ومهمة من الطابع المعماري لمكة والمدينة تضيع حاليًا بسبب عمليات الصيانة والتوسعة. غير أن (العلوي) أكد وجود طريقة أفضل للتعامل مع الموضوع، وذكر: «أنا لا أقف ضد توسيع المسجد الحرام، ولكن يمكنهم القيام بذلك دون تدمير الجوانب

الأثرية والتاريخية للمكان، ولكن من الواضح أن السلطات السعودية غير مهتمة لهذا الجانب أبدًا».

وقال (العلوي) إن التهديدات التي تواجهها المساجد الأثرية تضاف إلى قضية تدمير المناطق التاريخية في السعودية.

من جهة أخرى، صرحت (مجموعة بن لادن)، المسئولة عن عمليات التوسعة، على لسان مدير المشروع (محمد جمعة)، أن المشروع الجديد يهدف إلى توفير مناطق إضافية للصلاة، من أجل منع التدافع الناجم عن أعداد الحجَّاج والمعتمرين الكبيرة. وهذا التصريح مطابق كما سنشير لاحقًا إلى ما تقدمه السلطات السعودية من تفسير لكل ما يحدث داخل الحرم المكي وحوله، وهو استقبال عدد أكبر من الحجَّاج والمعتمرين وتسهيل تأديتهم للفريضة المقدسة.

الجدير بالذكر هنا أن تدمير وإزالة هذا التراث يخلق رفضًا إقليميًا وعالميًا، خاصة من الدول والثقافات التي ساهمت في صياغة هذا التراث على مدار حقَب تاريخية سالفة. وعلى رأسها السلطات التركية التي تعبر عن مجد الإمبراطورية العثمانية التي قدمت الكثير للحجاج وللأراضي المقدسة وحمايتها كما ناقشنا في الفصل الأول. فقد أعربت السلطات التركية عن قلقها من إزالة هذه الآثار، وأكدت وزارة الخارجية التركية أنها تبحث هذا الأمر مع السلطات السعودية منذ عام ٢٠٠١. وقد تم توثيق اعتراض إدارة المتاحف والمرافق الثقافية التركية في بيان عُرِض في شبكة الأخبار العالمية CNN، تم فيه التأكيد على أهمية حماية تلك الآثار، التي تَعيد للأذهان وضع الدولة العثمانية في تلك الفترة، وتوثق حقبة تاريخية لا يمكن نسيانها. وحاولت (CNN) الاتصال بوزارة الشؤون الإسلامية السعودية، وعدد من المسئولين بالمملكة، ومن بينهم أمير منطقة مكة والبلدية، والسفارة السعودية في لندن، إلا أنها لم تنجح في الحصول على أي رد من هذه الجهات تبعًا لما هو موثّق. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تصطدم فيها السلطات السعودية مع تركيا بسبب إزالة مبان تعود للعهد العثماني، والتي تعتبرها تركيا جزءًا من التعاون الثقافي التاريخي. ففي عام ٢٠٠٢، عبّرت أنقرة عن غضبها لتدمير قلعة أجياد العثمانية، التي بُنيت على أحد الجبال المُطلّة على الكعبة في نهاية القرن الثامن عشر، وعلى سبيل المثال استنكر (سامي عنقاوي) هدم منزل السيدة خديجة رضي الله عنها زوج

الرسول ﷺ، ليعطي مساحة كافية لمشروع مغاسل عامة. وثمت حالة أخرى صارخة في منزل الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رفيق رسول الله الذي هُدم منزله ليكون هو الموقع الذي بُني عليه فندق الهيلتون. هذا المستوى من التعامل مع المدنَ المقدسة ومحتوياتها غير القابلة لَلاستعادة يصفه (عنقاوي) بأنه حوّل الحرم المقدس إلى آلة صمّاء، مدينة لا تاريخ لها ولا تراث ولا هُويَّة ولا حتى بيئة طبيعية، فقد محوا حتى الجبال والتلال.

وكما ذُكر سابقًا فإن التبرير الدائم الذي تسوقه السلطات السعودية لعملية الهدم والإحلال المَستمرة، هو الرغبة في استيعاب الأعداد المتزايدة من الراغبين في أداء مناسك الحج. الأكيد أن هذا التبرير يتوافق مع لقب الملك وهو خادم الحرمين الشريفين وهو اللقب الذي يعطي الإيحاء الكامل بأن الملك وكل سلطاته تتفرغ لخدمة الحرمين الشريفين، ومن ثَمَّ تسهيل مهمة المسلمين القادمين إليهما. وأما ما لا يمكن إعلانه والذي يصرح كثير من المواطنين والمخططِّين وبعض موظفي الحكومة السعودية عند اطمئنانهم لعدم نشر أسمائهم، هو أن الدافع وراء كل هذه العمليات هو دافع مالي استثماري بحت. إنها الرغبة في تعظيم الربح من أكثر مناطق الاستثمار العقاري في العالم قيمة. لقد تم تفسير خدمة الإسلام والحجيج تفسيراً يمكِّن من تعظيم الدورة المالية والربحية والاستثمارية للنطاقات العقارية حول الحرم، مع تغليفها الدائم بالغلاف الذي يثير العواطف، ويدغدغ المشاعر: خدمة زوار بيت الله.

مواكب الحجاج تتحرك وسط أنقاض أعمال هدم لا تنتهي
لتفسح المجال لمزيد من المباني العملاقة حول الحرم المكي.

في المدينتين؛ مكة المكرمة و لاس ڤيجاس، وبهذه الفلسفة الاقتصادية الفريدة، فإن أي طرح له علاقة بالاستدامة والاستمرارية وتوفير الموارد والحرص على مستقبل كوكب الأرض المهدد، لا يمكن قبوله أو استيعابه. فالهدم وبناء الأكبر والأضخم سيحقق الربح الأعلى والأوفر، وفي إطار هذه المعادلة تتضاءل، بل تنعدم فرص الحوار عن جدوى وأهمية وضرورة التنمية المستدامة. إجهاض الحديث عن أفكار الاستدامة في مدينة الخطيئة قد يكون مقبولاً ولكنه يصبح جريمة في البقعة الطاهرة التي ترمز إلى كل قيم الإسلام ومنها العقلانية والتواضع الابتعاد عن الإسراف والمبالغة، والتساوي بين الناس.

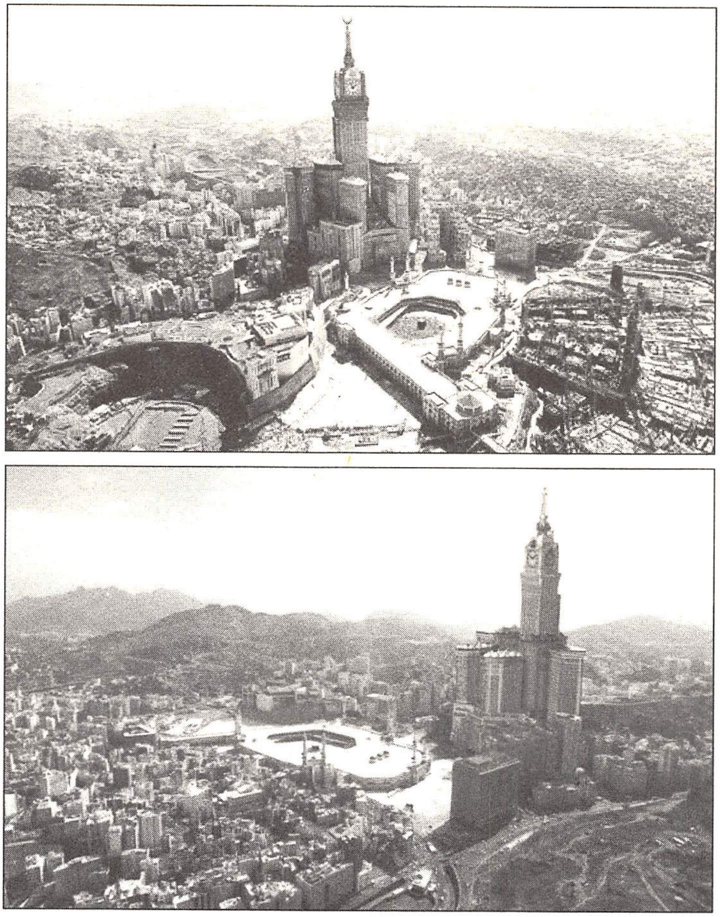

لقطات متعددة الزوايا توضح حجم الجريمة العمرانية والمعمارية والأخلاقية المتمثلة في مشروع أبراج البيت على حافة الكعبة، بيت الله الحرام.

الانبهار المبهر والبقاء للأضخم

في عام (١٩٧٢م) نشر المعماري والعمراني الكبير (روبرت فينتوري) كتابه الشهير «التعلّم من لاس ڤيجاس». خلق هذا الكتاب حواراً عالميًا دعى المعماريين والعمرانيين إلى استقبال أكثر تواضعًا لأفكار العامة والبسطاء، والتنازل قليلاً عن بطولة المعماري والعمراني وقيادته المنفردة لمنظومة البناء والعمران. واعتمد (فنتوري) على حالة لاس ڤيجاس لأنها بعلاماتها ومبانيها وزخارفها ولوحاتها الإعلانية وأضوائها الصاخبة تقدم نموذجًا فريدًا لاستقطاب الإنسان ولفت نظره وإدماجه في تجربة إدراكية وحسية وبصرية فريدة. ومنذ تاريخ نشر الكتاب وحتى اليوم، ومدينة لاس ڤيجاس تقدم دروسًا لمدن العالم التي ترفع شعار الإبهار ولفت الأنظار وخلق شخصية تسويقية تجذب إليها السائحين ورجال الأعمال. لقد حاولت مدن كثيرة في العالم تقليد لاس ڤيجاس على أمل أن تضمن لنفسها موقعًا على المسرح العالمي، ومن أهم المدن العربية التي رأت في لاس ڤيجاس الإبهار نموذجًا؛ مدينة دبي. ملامح الإبهار «اللاسڤيجاسي» في مجال العمارة والعمران تتعدد وأهمها: المقياس العملاق والقصة الأسطورية والتركيبة الأيقونية وتزييف الصادق وتصديق المزيف. ولذا قد يكون من الواجب تعقب مدى ظهور وتواجد هذه الملامح في عمارة وعمران مكة المكرمة كما هي جلية في مدينة لاس ڤيجاس.

عندما تتأمل فنادق مدينة لاس ڤيجاس، ترى مستوى من الضخامة والعملقة تستدعي من ذاكرتك صوراً لوحوش أسطورية ومباني ألف ليلة وليلة وحمامات روما وساحات أثينا، وحتى أهرامات الفراعنة. وحينما توجه نظرك من صحن الكعبة إلى العمران المحيط بك فلا يدهشك تطابق المشاعر وثبات التجربة البصرية، فأنت مرة أخرى محوط ومحاصر بالعمالقة التي تتناسى تمامًا بمن تحيط، وما هي قداسة وروحانية من تتطاول عليه بمكعباتها الخرسانية القبيحة. مدينة لاس ڤيجاس أيضًا، مدينة الخطيئة تتفوق في التلاعب بالصادق والمزيف فتبني الهرم الأكبر وتضع أمامه أبو الهول شامخًا، ثم تحفر النيل وتسمح بتدفق مياهه في مداخل الفندق وساحاته المختلفة. في مكة أيضًا انشغلنا بالمزيف والأسطوري، فساعة أبراج البيت يجب أن تحطّم أسطورة ساعة بيج بن الشهيرة بالعاصمة الإنجليزية لندن، لتكون خمسة او ستة أضعاف حجم

الأخيرة. وحجم المبنى يجب أن يكون الأضخم في العالم وارتفاعه يجب أن يكون الأعلى في العالم. المثير أننا في خضم نشوتنا بهذه الانجازات الأسطورية العملاقة الضخمة حول الكعبة لم نسأل أنفسنا السؤال الأكثر صدقًا: ما معنى كل هذا وأنا في بيت الله؟ ما معنى كل هذا وأنا في أقصى لحظات ضعفي وقلة حيلتي لا يسترني من العراء إلا قطعة قماش بيضاء يلبسها الغني والفقير على السواء. لقد توارت المآذن في خجل بعدما أصبحت الفنادق الفاخرة شاهقة الارتفاع هي الأكثر تأثيرًا في تشكيل صورة المدينة المقدسة، وهو ما خلق تناقضًا جوهريًا مع الطبيعة الروحانية للمدينة

مكة المكرمة للأغنياء فقط: انتصار الطابع «اللاسفيجاسي» للمدينة المقدسة

كيف تتحقق المساواة بين المسلمين والتيقّن من أنه لا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى، كما يشير القرآن والسنة، بينما حين ينظر الحاج أو المعتمر عاليًا يرى من يُطلّ عليه وعلى الكعبة من نافذة المبنى الأسطوري، وهو يرتشف العصير البارد الطازج وبجواره زوجته مستمتعة بنعمة الغنى والثراء والقدرة على شراء حجرة في أبراج البيت التي يتراوح سعر الاستوديو أو الغرفة الواحدة بها من ٦٥٠٠٠٠ إلى المليون دولار أمريكي. قد يكون هذا مقبولاً في مناطق الاستثمار السياحي الترفيهي في العالم كله بما في ذلك لاس ڤيجاس. فقطاع السياحة دائمًا ما يمجد الأغنى والأكثر قدرة على الإنفاق وتتفنن العقول في إيجاد فرص الإنفاق والترفية في كل البقاع السياحية المتميزة في العالم بأسره من البهاما وهاواي إلى المالديف، ومن فلوريدا إلى مايوركا. ولكن التجارب الدينية الروحانية تختلف أو بالأحرى يجب أن تختلف حتى لو أُدرِجت تحت تصنيف السياحة وسُمِّيت «سياحة دينية».

غرفة بمنظر خلاب: مشهد للحاج الثري فقط

حتى موظفي الاستقبال في الفنادق المطلة على الحرم، وخاصة (فيرمونت أبراج البيت) مُدرَّبين لإسعادك، ونقل بُشرى فتوى أن الصلاة في غرف وأجنحة الفندق تعادل ثواب الصلاة في الحرم المكي، بدون مغادرة الغرفة أو الجناح حيث يكفي فقط التوجه إلى القبلة والنظر من أعلى إلى الكعبة الشريفة، من خلال النوافذ البلورية الممتدة من الأرض إلى السقف، هذا المشهد الدرامي أسفل الفندق. الواقع أن هذا

المبنى بالقطع غيَّر، وللأبد، تجربة الحج والعمرة لكل إنسان مسلم أكرمه الله سبحانه وتعالى بزيارة أم القرى: مكة المكرمة وحرمها الشريف ومسجدها الحرام وكعبة المسلمين.

«برج مكّة كلوك رويال، فندق فيرمونت أحد أبراج البيت السبعة، يطاول أبراج العالم وصولاً إلى ٥٧٧ متراً، ويضم وحدات إعمار رزيدينسز بفيرمونت مكة. فإضافة لاحتوائه على باقة من المطاعم وقاعات الاجتماعات والمناسبات، تتألق قمة البرج بساعة تعلّم المسلمين بأوقات الصلاة، إذ يصل طولها إلى ٤٠ متراً، ما يشكّل ٥ أضعاف حجم ساعة بيج بين الشهيرة في لندن».

(من الكتيب الدعائي المشروع، ص ٣٠)

موقع الأبراج العملاقة جنوب الحرم ثم المنطقة الجديدة المخصصة لأعمال التوسعة والأبراج الجديدة شمال الحرم.

ما يلفت النظر في هذا الوصف الدعائي للمشروع ليس فقط فكرة التوجه الرأسي والمنافسة غير المبررة مع أطول أبراج العالم، والتأكيد على التفوق على ساعة بيج بين في العاصمة البريطانية لندن تفوقًا حجميًا. تتبلور هنا بصورة واضحة، قضية التنمية حول الكعبة الشريفة وحرمها المكي، وتبرز التساؤلات: لماذا يصبح التنافس مع أبراج العالم والتفوق على أطوالها إنجازًا للتنمية المحيطة بالحرم المكي؟ لماذا يصبح التفوق الحجمي على ساعة بيج بين التي تمثل أحد أهم العلامات المميزة للمملكة البريطانية مرجعية للتفوق والتميز في صحن الكعبة؟

احتضار أم استحضار المقدس

> **«المدن مثل الأحلام مصنوعة من الرغبات والمخاوف، حتى لو كان خيط خطابهم الحاكم سريًا، قواعدها منافية للعقل، رسائلها البصرية المخادعة، وكل شيء يخفي شيئا آخر».**
>
> **(إيتالو كالفينو، المدن الخفية)**

من اللافت للنظر في التشابهات الجدلية بين مدينتي مكة ولاس ڤيجاس، الاشتراك في صياغة علاقة خاصة مع المقدس والأسطوري، فالمدينة الأولى تملكه ولكنها تفقده بقرارات يحكمها الفكر الرأسمالي ورغبة متزايدة في أرباح غير مسبوقة من نبع حجّاج لا ينضب. فعلى مستوى مكة المكرمة، فإن الحرم المكي هو أكثر الأماكن المقدسة في العالم استقبالاً للزائرين، ففي موسم الحج تستقبل مدينة مكة ما لا يقل عن ثلاثة ملايين حاج. بينما يتجاوز عدد الحجّاج والزوار والمعتمرين على مدار العام أكثر من عشرة ملايين يزورون الحرم المكي سنويًا تبعًا لإحصاءات وزارة الحج بالمملكة العربية السعودية. ومع كل هذا تتلاشى التجربة الروحانية أمام سطوة المال وفشل سياسة فهم المكان واستيعابه كمكان وحيّز للتجارب الروحانية وليس لأعلى معدلات تدوير رءوس الأموال في العالم.

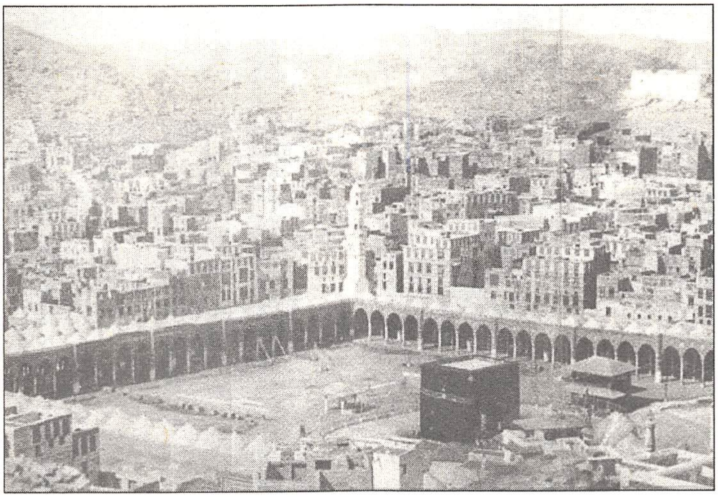

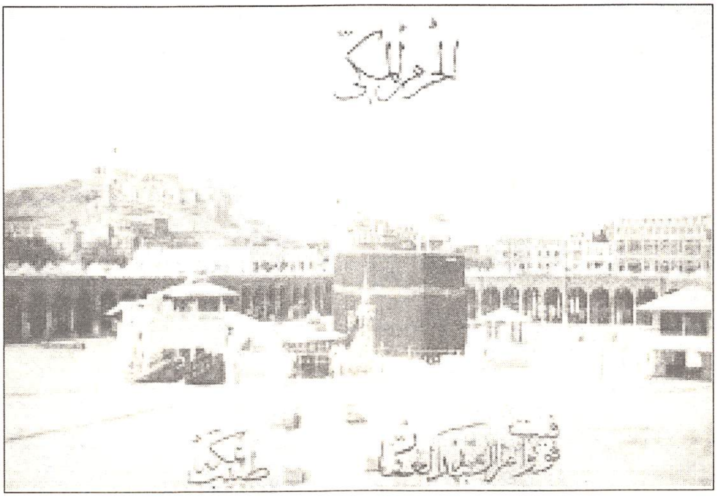

لقطات فوتوغرافية تاريخية تؤكد وتوثق القيمة المكانية والروحانية لبيت الله الحرام عندما كانت الكعبة بؤرة الاهتمام.

وكما أوضحت الدراسة في الفصل السابق، فإن احتضار المقدس لا يمثل فقط استعارة بلاغية للتعبير عن قسوة الواقع، ولكنه تعبير عن حقيقة ما يحدث من اختفاء لمواقع وعمران وعمارة شهدت فصولاً من أكثر فصول العقيدة الإسلامية قداسة. فأجواء القداسة والروحانية تتضاءل مع الهجمة الاستثمارية على محيط الحرم المكي.

وأدّي ذلك إلى أن كنوزًا حقيقية لها قيمتها المقدسة مثل بيت زوجة الرسول ﷺ وعائلته وأصحابه أزيلَت بغير رجعة ولم يعد لها أي أثر مادي في الذاكرة المبنية للمدينة.

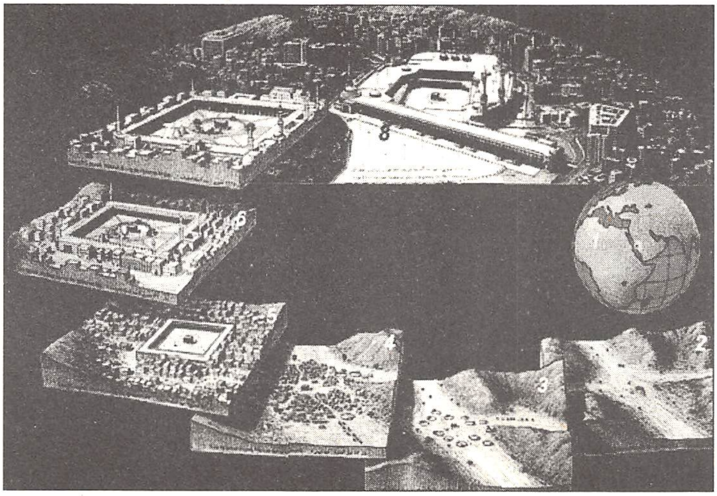

دياجرام توثيقي يوضح التطور التاريخي لأعمال وتطوير الحرم المكي قبل مرحلة التعلم من لاس ڤيجاس والتوجه إلى بناء الأعلى والأضخم والأغلى.

والمدينة الثانية، لاس ڤيجاس، تستحضر المقدس وتوثقه وتعيد صياغته بشكل زائف مروّج. فعلى صعيد مشابه فإن مدينة لاس ڤيجاس تستحضر المقدس والأسطوري الذي ينقصها، ليضفي أجواء فريدة على السياق المكاني والتجارب الفراغية التي يعيشها المقامر والزائر. تأمل ماذا يفعلون في المدينة حيث تُبنَى الأهرامات ويُنحَت أبو الهول وتُنَظّم المصارعات في الكولوزيوم وتُفَجّر قوارب القراصنة في ساحة فندق الميراج الشهير. وهكذا تتكامل دراما الصورة الذهنية المثيرة وينتقل زائر المدينة من فندق إلى آخر متلهفًا للأسطورة الجديدة أو للعبق المقدس الذي سيختبره في ساحات فنادق المدينة ومداخلها الرحبة قبل أن تحاصره ماكينات وطاولات صالات القمار صناعية الإضاءة والتهوية التي تتفنن في إسقاط الزمن وتَفصل الإنسان فصلاً كاملاً عن إيقاع الحياة ليصبح مشدودًا فقط لإيقاع الفيشات وأحجار النرد المتقافزة على الطاولات الحمراء.

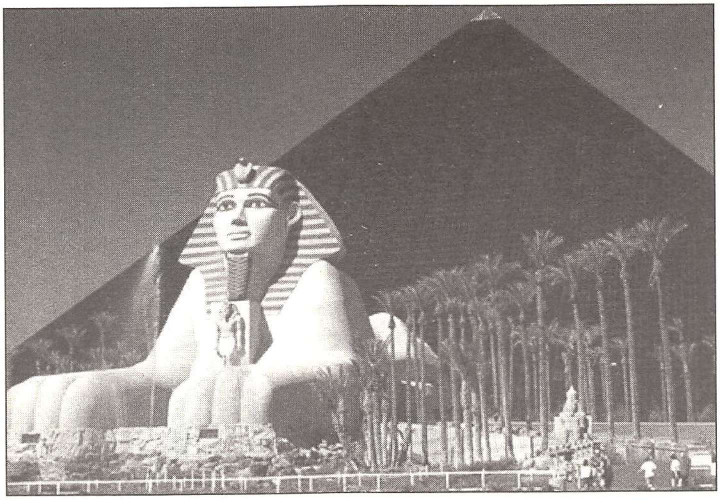

فندق الأقصر بمدينة لاس فيجاس واستدعاء مسرحي وساذج للعمارة الفرعونية لكنه مبهر للسائح البسيط الباحث عن مغامرة ومقامرة في أنحاء المدينة.

عمارة أبراج مكة العملاقة: غابة المآذن والأبراج والأوناش

يتابع الراصد البصري للتنمية في السياق المباشر المحيط الحرم المكي اندفاعًا إلى معادلة جديدة في عمران وعمارة المدينة أهم أركانها شعار أن «البرج هو الحل». ترتكز مشروعات التنمية الجديدة في مدينة مكة المكرمة على لغة بصرية وتشكيلية تتجاهل الأصول التاريخية لعمارة وعمران المدينة المقدسة وأنساق نموها وتطورها. لقد استمر الحرم المكي والكعبة الشريفة لقرون طويلة الكيان البنائي الأكثر تأثيرًا في الصورة البصرية للمدينة. فهذا تدعيم لشخصية المدينة وطابعها الروحاني والديني المقدس. أما في العقد الأخير فقد حدث تغير نوعي لم تعد معه تلك الصورة البصرية تمثل الأولوية. أصبح التوجه الرأسي وخلق حوار غير مفسر بين ناطحات السحاب الفندقية والتجارية هو المنهج الأكثر قبولاً حتى في خلال السياق الأكثر اقترابًا من الحرم المكي والكعبة الشريفة. لقد تحول الحج من رحلة بسيطة متواضعة منضبطة للخلاص والمغفرة إلى عمل تجاري استثماري يستلزم عمارة وعمران متضخم يلائم التوجه الجديد. هذا التوجه الجديد يستدعي كل أنواع التضحيات مهما كان قيمتها التاريخية والأثرية بل والمقدسة.

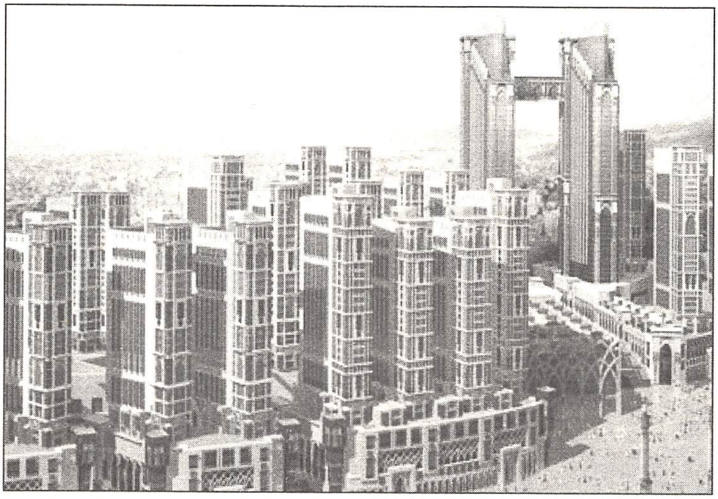

مشروع جبل عمر

ومن أهم المشروعات الواقعة في نطاق الحرم المكي، والتي تتفق جميعًا في أن المفهوم الحاكم لتنميتها هو الاندفاع الرأسي ورفع شعار «البرج هو الحل» هذا الشعار الذي أصبح يمثل مدخلاً تنمويًا وتصميميًا لازمًا في كل هذه المشروعات. منها على سبيل المثال مشروع جبل عمر الذي يقع على الحافة الغربية للمدينة. والمشروع يتسع لقرابة ١٠٠ ألف شخص في ٢٦ فندق فاخر يقبع فوق قاعدة مكوَّنة من تجمع عملاق من المحلات التجارية يصل عددها إلى أربعة آلاف محل وخمسمائة مطعم وصالة للصلاة بارتفاع ستة طوابق. اللغة المعمارية في مشروع جبل عمر مشابهة لحالة مشروع أبراج البيت وبرج الساعة فهي لغة سطحية تعتمد على مفردات معمارية وتشكيلية وزخرفيه مستهلكة مثل العقود والبانوهات المزخرفة سابقة التصنيع. لقد حوَّل المعماريون والمطوِّرون اللغة المعمارية الأصيلة التي نبعت من سياق عمراني بسيط بعبقرية، ومتضامّ بألفة، يتميز بالأفنية الداخلية المفتوحة للسماء، والمواد المحلية والشوارع إنسانية المقياس إلى مجرد شرائح زخرفيه تُلصَق على المباني لإعطاء وهم الأصالة واحترام التراث والارتباط مع التاريخ. أما مشروع الشامية، الذي يقع على الجانب الشمالي من المسجد الحرام، وهو يتكلف ١٠ بليون دولار ويهدف إلى إضافة ٤٠٠ ألف متر مربع من ساحات الصلاة

واستيعاب مليون ومائتي زائر إضافي كل عام. الصورة النهائية للمشروع وجريمة اقترابه وإطلاله على الحرم المكي، دفعت العديد من نقاد العمارة والعمران على المستوى الدولي من استنكار ما يحدث في المدينة المقدسة. فعلى سبيل المثال فإن الناقد المعماري لجريدة الجارديان البريطانية الشهيرة، (وينرايت) فَضَّل أن يطلق على المشروع لقب «صفوف خبز التوست» ساخراً ومستنكراً من النمطية الميكانيكية والتشكيل الاستاتيكي المتناقض مع أجواء المدينة المقدسة (Wainwright, 2012).

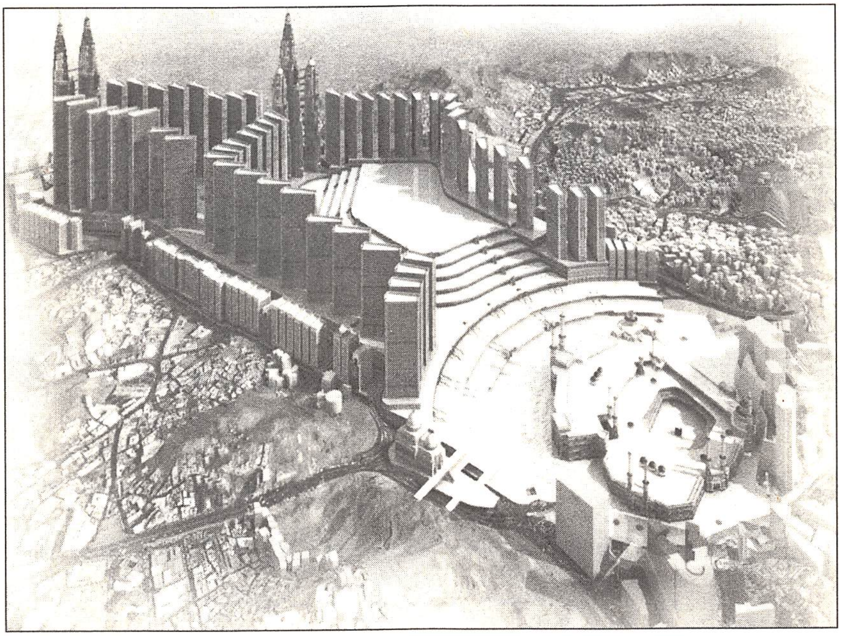

مشروع منطقة الشامية أو عمران أبراج خبز «التوست» كما وصفه ناقد صحيفة الجارديان.

وعلى الرغم من انفصال المعماري والعمراني الأجنبي عن واقع فهم الأبعاد الروحانية والمقدسة لمدينة مكة المكرمة، فإن عطاء المعماري والعمراني العربي المسلم لم يكن أكثر توفيقاً. والشكل التالي يوضح التنمية العمرانية لنفس المنطق، جبل الشامية، تبعاً للتصور الذي قدمه المعماري والمخطط العربي الشهير راسم بدران. وعلى الرغم من حساسية التصميم للنسيج العمراني، فقد سيطر التوجه الرأسي مرة أخرى على الطرح المقدَّم منه في مسابقة تطوير المنطقة.

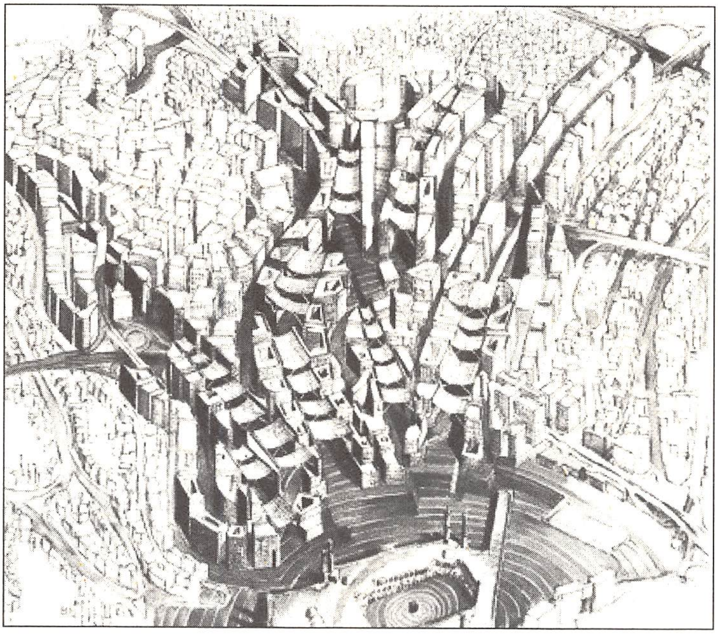

الطرح التصميمي والتخطيطي المقدّم من المعماري راسم بدران للتنمية العمرانية بمنطقة الشامية المطلّة على الحرم المكي.

أما ناقد جريدة النيويورك تايمز الشهيرة، (نيكولاي أوروسوف) فقد قدم تحليلاً نقديًا لما يحدث حول الحرم في الوقت الذي صَمَتَ فيه معظم أساتذة العمارة ونقاد في العالم العربي والإسلامي، إن لم يكونوا صمتوا جميعًا.

«هذا هو السخف المعماري»

"It is an Architectural Absurdity"

نيكولاي أوراوسوف، ديسمبر ٢٠١٠، (الناقد بجريدة النيويورك تايمز الامريكية) معلقًا على خبر إنشاء برج الساعة حول الحرم.

في مقاله النقدي القاسي والمثير للتساؤلات، بعنوان «مظهر جديد لمكة: العملاقة والمثيرة»، ناقش الناقد المعماري (نيكولاي أوراوسوف)، الناقد بجريدة النيويورك تايمز الأمريكية، مشروع أبراج البيت وخاصة برج الساعة الجديد. المشروع عبارة عن المبنى يحتوي على سوق تجاري عملاق وفندق يحتوي على ٨٠٠ غرفة وصالة صلاة تَسَعُ

آلاف المصلين كما سنفصل لاحقًا. إن هذا السخف المعماري، طبقًا لتعبير (أوراوسوف)، على الحافة الجنوبية للحرم المكي أقدس أراضي المسلمين لا يمكن قبوله. تقليد مسطح وساذج وعديم الذوق لبرج ساعة (بيج بن) في لندن.

التشكيل المتعملق الضخم للمشروع هو تكبير غريب ومحبط للنموذج الأصلي لبرج ساعة بيج بن وأعلى البرج وضع الهلال الإسلامي الشهير لإضفاء مسحة مصطنعة تذكّر بالماضي. برج الساعة المكية هو القطعة المركزية في مجمع المباني، المعروف باسم أبراج البيت، الذي يُعدّ واحدًا من أعلى المباني في العالم، وبالقطع هو الأعلى والأضخم حول أي موقع روحاني في كل بقاع العالم. يتكوّن البرج من مركز تجاري عملاق وفندق به ٨٠٠ غرفة، يتنوع بين الشقق الفندقية ووحدات الإقامة وكل الخدمات الراقية الملحقة. وينتهي برج الساعة بشكل الهلال رمزًا للإسلام بصورة تزيد من سذاجة الرسالة الرمزية الممزقة بين تقليد الساعة اللندنية وهلال الراية الإسلامية.

هذا المشروع، أبراج البيت، هذا البرج هو واحد من مجموعة من المشروعات العملاقة في قلب مكة، تهدف إلى توسيع الحرم ثم إحاطته بمجموعة هائلة من الأبراج السكنية والفندقية الفاخرة. فقد أعطت السلطات في مكة المكرمة الضوء الأخضر لإنشاء العشرات من الفنادق الفخمة المدارة بواسطة شركات عالمية. وإذا استمر المعدل الحالي لبناء الغرف الفندقية، فسيصل إجمالي عددها إلى ٨٠,٠٠٠ بحلول عام ٢٠٢٥.

برج الساعة الملكي في مكة ونصف دستة من الأبراج الفاخرة المحيطة به تم بناؤها على مواقع أُزيل منها كل ما عليها. هذا هو المؤلم فقد بُني البرج على أنقاض قلعة عثمانية تعود للقرن الثامن عشر قامت السلطات بالحَرم المكي وبموافقة الحكومة السعودية بإزالتها بالكامل باستخدام البلدوزرات العملاقة وفي ساعات محدودة. وللمرة الأولى يتم توجيه نقد معلن للسلطات السعودية على تبنيها هذه الرؤية التنموية التي يعتقد البعض أنها تتناقض مع الطبيعة الروحانية للمكان. وتتصاعد دراما الرفض عندما يوصف ما يحدث حول الحرم بأنه: «اتجار ببيت الله».

هذا هو الوصف الذي استخدمه المعماري والعمراني السعودي (سامي عنقاوي) خاصة، وهو يتحدث عن ملايين الدولارات التي تُدفَع لعقود الإيجار الطويلة الأجل

للوحدات السكنية القريبة من المسجد والتي تتصاعد تدريجيًا كلما اقترب الموقع من الحرم المكي، ثم تتضاعف ثلاث مرات أو أربع عندما تكون الوحدة المستأجرة تري المسجد أو تُطِلّ إطلالة مباشرة عليه.

ومن اللافت للنظر أن نفس السلطات السعودية في نهاية السبعينيات وبدايات الثمانينيات كانت أكثر حساسية في التعامل مع الحرم المكي والحرم النبوي. فكما يناقش (أوراوسوف)، فقد تم الاستفادة من التدفقات النقدية من عوائد البترول، وتم استدعاء مجموعة متميزة من المعماريين والعمرانيين شاركوا في مشروعات مباشرة تخدم الحرمين والمناسك، ومنها مدن الحجيج التي صممها المعماري الألماني الشهير (فراي أوتو) الذي استوحى تصميمها من خيام القبائل البدوية، وكان المشروع يهدف إلى استيعاب الحجيج دون التأثير على البيئة الحساسة للتلال المحيطة بالمدينة المقدسة. كذلك مشروع صالة الحج في مطار الملك (عبد العزيز) الدولي والتي صممها المكتب الأمريكي المعروف (سكيدمور)، أو (ينجز وميللر). هذا المشروع صُمِّم كشبكة مكونة من أكثر من مائتي وحدة من المظلات أو الخيام المعتمدة على نظام الكابلات الصلب والأعمدة، وهي مقسمة إلى ما يشبه قرى بدوية صغيرة في الهواء الطلق، حيث يُمكِّن الحجَّاج المسافرين من الراحة والصلاة في الظل قبل مواصلة رحلتهم. هذه المشروعات تميزت بتطلع حداثي عصري، ولكنها في الوقت ذاته استلهمت من البيئة المحلية والتقاليد السائدة، ولم تتناقض مع تعاليم الإسلام ومبادئ البساطة والتواضع والمساواة. وعلى النقيض من الأطروحات السابقة العميقة في فهمها للتحديث وتعاليم الإسلام، تأتي المشروعات الحالية لتمثل - خاصة مع برج الساعة العملاق وغيره من مشاريع التنمية الضخمة الأسطورية - مشهداً قد يكون مثيراً للسخرية أحيانًا، أو مستدعيًا بالقطع صورة مدينة لاس ڤيجاس. ولكنه بالقطع في كل الحالات يتناقض مع طبيعة مكان يحج إليه الملايين من كل بقاع العالم، ويتطلعون إلى تجربة روحانية قد تكون الوحيدة في كل عمرهم.

أبراج البيت واحد من أكبر مشروعات البناء التجاري في العالم. تم تمويل المشروع بصورة خاصة من نفس الشركة المطوِّرة والمقاول المنفِّذ للمشروع، وهي (مجموعة بن

لادن) السعودية. ومع أن الشركة ذاتها ستواصل إدارة المشروع، إلا أن جميع الأرباح سوف تذهب إلى وقف الملك (عبد العزيز) للسنوات الخمس والعشرين القادمة. حيث سيتم استخدام الأرباح للمحافظة على المجمع نفسه وغيره من المواقع الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. بعد ذلك، سوف يكون (لمجموعة بن لادن) حقوق الأغلبية من الأرباح بعد انتهاء فترة ٢٥ عامًا. وشركة (بن لادن) هي في الوقت ذاته المقاول للعديد من مشاريع التنمية في مكة المكرمة، لها علاقة خاصة مع الأسرة الحاكمة. حيث إن أبناء مؤسسي المملكة السعودية ومُلاك شركة البناء البارزة «بن لادن» متداخلين في علاقة متشابكة تحكمها الثقة المتبادلة بين كلا الجانبين مع علم كامل بالخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها (بشير ٢٠١٠). وهذا هو أحد العوامل الجوهرية التي أسهمت في صياغة رؤية الحداثة التي تتخلل الخطط الحضرية والسياسات الثقافية لمكة المكرمة. والتي تكشف عن نوع جديد من الحضرية المتعولمة المفرطة والمذهلة التي اتخذت من مكة المكرمة مركزها ومسرح أحداثها.

المثير للتساؤل أن المشروعات الجديدة تحتفي بالطبقية في أعلى صورها، فالمدينة المقدسة ستحوي تناقضين طبقيين أساسيين. طبقة ثرية محظوظة تنعم بالإقامة في أبراج فندقية وسكنية خيالية المستوى التي تحيط بالحرم إحاطة جدارية، بينما تُدفَع الطبقة الفقيرة، وأحيانًا بكل قسوة إلى الحدود الخارجية والأطراف. وستتمتع هذه الطبقة الثرية بإطلالة من أعلى، وهم في أجنحتهم الفاخرة، على المشهد أسفلهم، الذي يرون فيه زحام الطبقة الأخرى دون أن يضطروا للاحتكاك معهم. وبطبيعة الحال فإن الطبقة الفقيرة والمتوسطة سيستمر دفعها المباشر أو غير المباشر إلى خارج نطاق المدينة أو بالأحرى خارج الأسوار الجديدة حول الحرم الشريف التي تكوِّنها الأبراج الشاهقة الفاخرة. وهنا يستمر عنقاوي في نقده الجريء واصفًا ما يحدث بأنه عملية «تطهير» لمكة من أهل مكة.

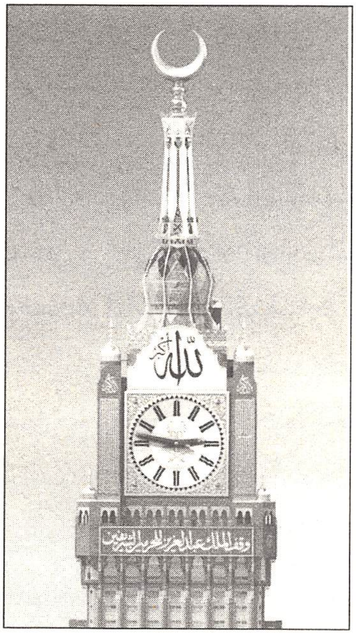

علي اليمين برج ساعة بج بن الشهير وعلى اليسار النسخة المكبرة ستة مرات على برج الساعة بأبراج البيت القافزة على الحرم المكي. مباشرة على الحافة الجنوبية للحرم المكي، أقدس بقعة في العالم للمسلمين، نسخة فجة من ساعة بيج بن الشهيرة في مدينة لندن تم بناؤها لتسمى برج ساعة مكة الملكي. الأكثر سذاجة أن تسوق الفكرة بأننا نسعى كمسلمين لتحويل التوقيت العالمي من جرينتش إلى مكة. نقول هذا في الوقت التي تغير الدول العربية توقيتاتها وإجازاتها الأسبوعية للتوافق مع إيقاع الحياة المالية ومواعيد فتح البورصات في عواصم الغرب وخاصة لندن وباريس ونيويورك.

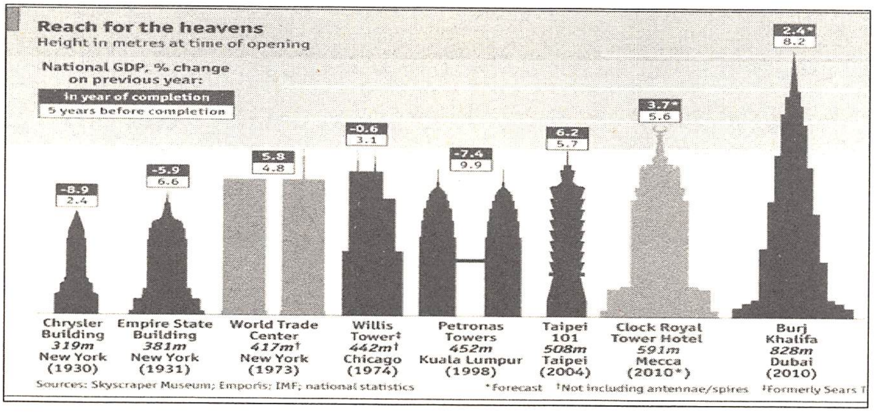

أبراج البيت الأسطورية على حافة الحرم المكي تحقق لقب ثاني أطول برج في العالم بعد برج خليفة بمدينة دبي بارتفاع حوالي ٦٠٠ متر بينما ارتفاع الكعبة ١٤ مترا فقط.

معنى احترام الكعبة وكرامتها وقدسيتها وثقافتها

«تتميز كل المشروعات المستقبلية في مكة بالتزامها بالطراز المعماري (مكة ستايل) «Meccan style»!!!

تصريحات محافظ مكة (أسامة البار) لوكالة رويترز الإخبارية ١٠ نوفمبر ٢٠١١.

لقد أعُيد صياغة وتشكيل قلب مكة التاريخي بصورة مروّعة يجب أن تولّد لدينا كمسلمين أولاً وكمعماريين وعمرانيين ثانيًا، أعلى درجات الرفض والمقاومة وإيقاف مأساة «لاس ڤيجاسية» مكة التي يصعب عليَّ أن أستكمل وصفها بـ «المقدسة». فالقداسة سلوك وأفعال ورؤى وليست ألقابًا وأبيات شعر خاوية المعنى والدلالة والمضمون.

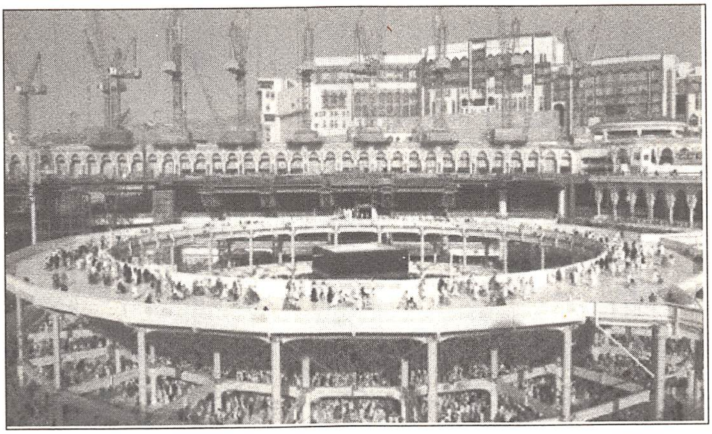

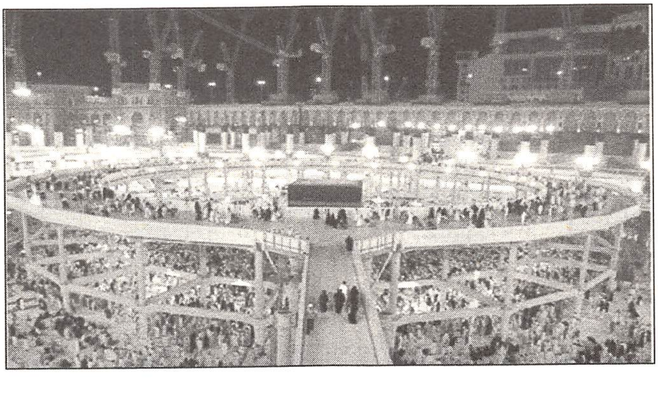

الهالة المقدسة العائمة الخانقة للكعبة الشريفة والتي ستستمر لمدة ثلاث سنوات وفقًا لتصريحات سلطات مدينة مكة المكرمة.. يستوعب ملحق الفصلين مؤقتة ١,٧٠٠ والكراسي المتحركة للساعة الواحدة. (تصوير: عرفان العلوي، ٢٠١٣).

هذا العام تم عمل إضافة جديدة على بعد أمتار قليلة من الكعبة نفسها. فقد تم إنشاء مسار دائري مرتفع ١٣ مترًا في الهواء بعرض ١٢ متر، يغطي بصريًا الجزء العلوي من الكعبة بل ويرتفع عليها. ومهما قيل لتبرير هذا المَمْشى المعلق، فإنه يُسهم في خنق الكعبة روحانيًا وماديًا وبصريًا، بل وحجبها عن نظر الآلاف من الحجَّاج في قاعات الصلاة العلوية في طوابق المسجد. والمحزن في الأمر أن هذه المعالجة وفقًا لتصريحات المسئولين ستستمر لمدة ثلاث سنوات كتدبير مؤقت على حد تعبيرهم، وبدون تركيز على الملايين الذين تأثروا وستتأثر تجربتهم الروحانية في الحج هذا العام والعامين القادمين بسبب إجراء ينضم إلى العديد من الإجراءات التي لا تدرك قيمة المكان ومعنى تجربة الحج إليه.

يبدو هنا أن الإشكالية الأكثر أهمية في تنمية وتطوير الحرم المكي تتضح وتتبلور. ويبدو أن هناك نقصًا حادًا في فهم واستيعاب أن هذا النطاق ليس بالقطع كأي نطاق تنموي آخر في العالم. فالإخفاق الحقيقي الذي يمكن رصده بوضوح تعكسه كلمات محافظ مكة، هو النظرة السطحية لهذا المكان الفريد وعدم إدراك قداسته وروحانيته وثقافته الإنسانية المتمايزة. ناقش الباحث فقيه (٢٠١٠)، تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة، وطرح تساؤلات عن كيفية صياغة بيئة معمارية عمرانية للمدينة المقدسة لها أصالة الماضي ومعطيات ومقومات المستقبل. فمع اكتشاف البترول بكميات تجارية تعرضت المملكة لطفرة معمارية وعمرانية غير مسبوقة، وكان معها التغيرات السريعة في التكوين المعماري والعمراني حيث جُلبت التقنية العالية والعمالة الأجنبية والأفكار المعمارية الحديثة بأشكالها وأنماطها المختلفة، ونُفِّذت المشروعات العملاقة بالمملكة دون مراعاة لظروف المجتمع وأنماط حياته. وتعرض التراث العمراني في المملكة وخاصة في مكة إلى النسيان الإهمال، وأوضح الباحث أن مكة المكرمة تعرضت لنفس الموجات، وتم تجاهل التراث الحضاري لها على حساب توسعة المسجد الحرام. وكان لظهور الحاجة إلى استقبال الأعداد الكبيرة من الحجاج والمعتمرين أن تم اللجوء إلى هدم أماكن بأكملها، فاندثرت بذلك ملامح كثيرة، ولم تترك سرعة التطور المعماري فرصة للملامح المعمارية والعمرانية الجديرة بالحفاظ والصيانة، والتي تعكس التراث الحضاري والتاريخي العريق.

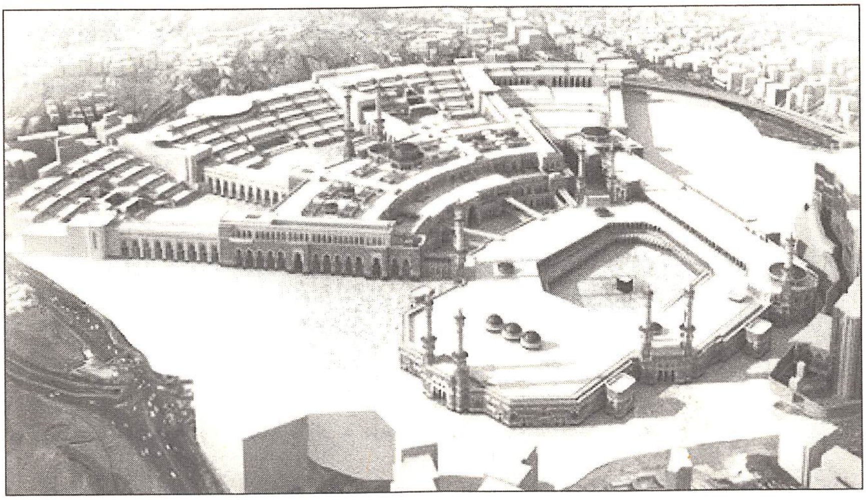

مشروع توسعة المسجد الذي تتجاوز تكلفته ٢١ بليون دولار أمريكي، سيزيد القدرة على استيعاب المصلين إلى أكثر من الضعف بإجمالي مليون ومائتين ألف مصل. تأتي التوسعة في إطار مخططات تطوير مكة ٢٠٢٠ التي ستدفع بالمجتمع المحلي بعيداً تاركاً مكانه لمزيد من الفنادق والمطاعم والكافيتريات والمجمعات التجارية. (الصورة: مجموعة بن لادن السعودية).

ومن الحتمي هنا إدراك أن ما هو مقبول في لاس فيجاس لا يمكن قبوله في كعبة المسلمين، ولكن التشابه كان نتيجة حتمية لإسقاط قيمة المكان وروحه وغياب الرؤية الكاشفة للفارق ما بين المقدس الروحاني والمدنس المادي. الكعبة هي مقصد الحجّاج لشفاء أرواحهم وتأدية الفريضة الكبرى من فرائض الإسلام الخمس. هي فريضة وحيدة أخبرنا الله أن من استطاع إليها سبيلاً فقط هو من يجب عليه تأديتها، وهو ما يوضح جليًا حجم المعاناة والمشقة. الحج في فلسفته رحلة، والشقاء النسبي للوصول إلى منتهى هذه الرحلة المقدسة، هو في حد ذاته جزء من الإعداد البدني والروحاني للحج. عندما نسينا أو تناسينا هذه الركائز الفلسفية للحج عانت العمارة والعمران حول الكعبة أشد معاناة. لقد هدمنا البسيط والمتواضع والفطري والأثري والتاريخي، وأقمنا بدلاً من هذا كله الضخم العملاق المتوحش وحاصرنا الكعبة مما جعل حجمها هو الأكثر ضآلة، بل تكاد تتلاشى كمقياس أمام طوفان المشروعات العملاقة. ولمزيد من الإحساس بقضية المقياس، نذكر أن أبراج البيت أكبر بكثير من أكبر مبنيين على الإطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية، وهما مبنى وزارة الدفاع

«البنتاجون» وفندق بالاتزو العملاق Palazzo في لاس ڤيجاس، وذك إذا وُضِعا معًا مجتمعين في موقع مشترك.

«برج الجوار المُطِلّ على الحرم المكي الشريف حيث يتميز البرج بموقع استراتيجي قريب من ساحة باب الملك عبد العزيز في الحرم المكي، و يتألف من ٣٣ طابقًا منها ٢٢ طابقًا سكنيًا يضم ٤٦٢ وحدة سكنية و١١ طابقًا إداريًا تجاريًا، وهذا هو المشروع الثاني للشركة، والأول هو برج الصفوة المؤلَّف أيضا من ٣٣ طابقًا. برج الجوار يتميز بوجود دور للصلاة متصل بصريًا وسمعيًا بالحرم المكي الشريف».

من تصريحات (ياسر العطّاس) المدير العام لشركة رواسين الحجاز المسوِّقة للمشروع. ٢١ يناير ٢٠٠٩- جريدة الأيام

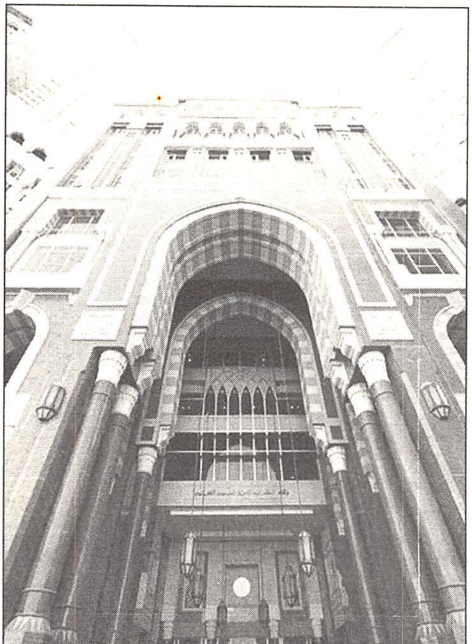

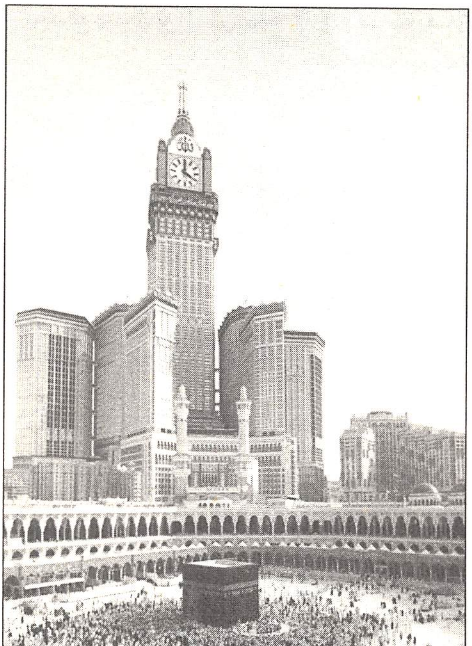

إذا لم نشعر بضالة الكعبة في هذا المشهد فيا ترى ما هي المشاعر البديلة التي يمكن أن تتولد فينا؟، وعلي اليسار مدخل أبراج البيت الذي يتجاوز في حجمه وفخامته أبواب الحرم المكي بلا استثناء.

الأكثر خطورة هي التبريرات الدينية والفتاوى المغرضة التي سهّلت عملية «لاس ڤيجاسية» مكة، فقد أفتى البعض بجواز اعتبار صلاتك وحدك في غرفتك المُطلَّة على الحرم كصلاة جماعة، وبالتالي لا تضطر للنزول إلى ساحة المسجد الحرام وتكبدَ مشقة الاحتكاك مع جموع المسلمين. بينما الواقع أن فلسفة الحج هي تحقيق هذا البعد الجماعي والتواصل بين أبناء الأمة الإسلامية في نطاق جغرافي مقدس واحد. وعندما تكتفي بتأمل الكعبة من أعلى فتظهر لك كيانًا ضعيفًا فلا يمكن أن يحمل أو يرسل أية دلالات روحانية أو إيمانية. بل وصلت الأزمة الأخلاقية لتنمية عمران المسجد الحرام إلى أقصاها بالدعوة من عدة فنادق عملاقة محيطة بالحرم لحديثي الزواج بقضاء ليالي شهر العسل اللذيذة الممتعة في جناحك المشرف على المنظر الجميل لبيت الله الحرام؛ كعبة المسلمين (انظر صورة إحدى اللوحات الإعلانية).

لوحات إعلانية عن إمكانية التمتع بليالي شهر العسل !! مع إطلالة على الحرم المكي الشريف والكعبة المشرفة مع وعد برحلة زواج مباركة. ويرجى ملاحظة أن العرض غير ساري في رمضان والحج لأن ١٩٥٠ ريال سعودي أو ما يقارب ٥٠٠ دولار أمريكي في الليلة لا تكفي لنيل «البركة» في أيام الشهر الفضيل (تصوير: علي عبد الرءوف).

الفصل الخامس:

لاس ڤيجاسية مكة المكرمة بين الحقيقي والمتخيّل

تمهيد

يناقش هذا الفصل حقيقة التحولات التي تم استعراضها في الفصلين السابقين. تلك التحولات التي أنتجت ومازالت تنتج مكةً جديدةً تبتعد بخطوات متسارعة عن الإطار الروحاني المقدس الذي غلف أجواء المدينة ونطاقها الإنساني والثقافي والعمراني لقرون طويلة. كما يطرح الفصل مفهومًا جديدًا لتنمية المدينة يتبلور حول التعامل مع مكة المكرمة ليس كمدينة خليجية معاصرة، وليس كنطاق استثماري رأسمالي، ولكن من منطلق أنها محمية روحانية إنسانية عقدية. هذه الرؤية، التي يمكن أن تتجسد تنمويًا وعمرانيًا، يجب أن تكون الطاقةَ المحركةَ لمفهوم التنمية في مكة المكرمة في المستقبل. كما يناقش الفصل في مقارنة مركزة التوجه الفارق بين حالتي مدينة الفاتيكان ومدينة القدس، وبين حالة مدينة مكة المكرمة مفاضلاً بين مناهج التنمية والتطوير والتحديث التي يتم التعامل بها مع المدن الثلاث على الرغم من اختلاف الخلفيات العقدية، بل والسياسية.

«اعلم أن لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتجرد والانفراد لخدمته، وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلبًا للأنس بالله، فجعل الحج رهبانيةً لهذه الأمة».

فمن الآداب المذكورة أن يكون خاليًا في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همَّه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وان يكون أشعثَ أغبرَ، رثَّ الهيئة، غيرَ مستكثرٍ من الزينة.

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل يباهي بالحاج الملائكة فيقول: انظروا عبادي، أتوني شُعثًا غُبرًا من كل فج عميق، أُشهِدكم أنني غفرت لهم».

وقد شرَّف الله بيته وعظَّمه، ونصبه مقصدًا لعباده، وجعل ما حوله حرمًا له تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه، وجعل عَرَفَة كالميدان على فنائه.

واعلم أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكِّر وعبرة للمعتبِر.

فصل من الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

مختصر منهاج القاصدين

ابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)

التداعيات على التأثير الروحاني للمكان

قد يكون من المخجل أن نظل صامتين تجاه ما يمكن وصفه بالعنف العمراني والمعماري الذي يجري القيام به في مكة وأهلها باسم راحة الحجّاج وسلامتهم. فقد أصبحت مكة المكرمة في الألفية الجديدة، غريبة حتى عن تلك التي أدركها الناس في الثمانينيات والتسعينيات. فقط في عقدين من الزمان تغير كل شيء، وبدت لنا مكة المكرمة مدينة جديدة يتكوّن خط سمائها من ملامح تقرّبها من عمران عواصم العالم الغربي. فاليوم لا يتردد معظم الحجّاج على الأبراج الشاهقة، وفنادق الخمس نجوم التي تفرض حصاراً عنيفًا على المسجد والبيت الحرام. مكة المكرمة التي يستحق الحجاج أن

يختبروها ويدركوها بشكل فريد ومتميز، هي بالقطع أكثر أمانًا وأسهل في الوصول إليها وأكثر راحة للزائرين والسياح بسبب جهود السلطات السعودية. ولكن التساؤل الأهم هل مجرد تحقيق متطلبات الإقامة والإعاشة الأساسية التي ترتبط باحتياجات الإنسان المعاصر في القرن الواحد والعشرين هي كل ما نتوقعه في أقدس بقاع الأرض؟ هل هذا مستوى خدمة الحرم الشريف التي نتوقعها من أكبر دولة مصدِّرة للنفط في العالم؟ هل تحسين الصرف الصحي والنقل وتدابير السلامة وتطوير أنظمة إنذار ومكافحة الحريق وتظليل أماكن الصلاة هو، فقط، ما تراه الحكومة السعودية كافيًا لتحقيق أفضل تجربة روحانية مقدسة في رحلة الحج؟ وهل توفير هذه الخدمات يتطلب إزالة وهدم كل ما هو تاريخي تراثي روحاني يذكرنا بنشأة الإسلام، ونضال نبيه الكريم، وجهاد المسلمين الأوائل؟ هل الحفاظ على تجربة الحج كأسمى تجربة روحانية يتطلع إليها المسلم، يتطلب بناء كل هذه المشروعات المفرطة في الفخامة التي يقرها خادم الحرمين الشريفين؟

الإجابة على هذه الأسئلة ليست أمرًا بديهيًا أو مباشرًا، ولكنه بالقطع عملية مركبة ومعقدة، ولكنها تتطلب الفهم العميق لخصوصية تنمية المدينة المقدسة. كما تتطلب أعلى مستويات الإرادة، لإدراك الدور الأكثر قداسة في شرف خدمة الحرم المكي الشريف، وليس التربح منه على حساب خسارة مقوماته الروحانية وتاريخه المقدس. لقد أصبحت التنمية العمرانية السريعة، والسباق نحو الأطول والأكبر والأضخم في مبان فانتازية الملامح والتشكيل، من الظواهر المعمارية والعمرانية العالمية. أينما ذهبتَ في مدن الخليج أو مدن العالم العربي أو المدن العالمية في أوربا وأمريكا تلحظ السمة المشتركة لعمارة وعمران مسقطة للسياق الثقافي والجغرافي، وتدفع إلى المزيد من التشابه المملّ والرتابة المكانية والبصرية والتشكيلية. في كل البلاد التي يتدفق منها الحجَّاج مثل إندونيسيا، ونيجيريا، وتركيا، وطهران أو مصر ومعظم دول الخليج، مثل هذه الاتجاهات الإنمائية مرصودة إلى حد كبير، ودائمًا تسوَّق في كل هذه البلاد على أنها رؤية مجسدة لمستقبل الدولة الحديثة المتطلعة إلى الأمام اقتداءً بنموذج غربي المنشأ. ولكن هذا التدمير العشوائي للتاريخي والتراثي،

وإعادة التطوير الحداثي الاستثماري الذي يجري في مكة المكرمة، وما يصحبه من تغيير شكل التجربة الدينية الروحانية الإنسانية بأسرها، ينبغي أن يجبرنا على التوقف والتأكيد على خصوصية مكة وتفردها. إن الخطأ الجسيم هو الاعتقاد بأن تطوير مكة وتحديثها يجب أن يتبنى مناهج التحديث والتطوير التي تتبناها مدن ليس لهويتها ومقوماتها ونشأتها أي علاقة مع خصوصية مكة المكرمة وتفردها غير القابل للمنافسة.

يجب أن نبدأ في تصور التأثيرات والانعكاسات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في مكة المكرمة، وعلى تجربة الحج، ونحن نفقد تدريجيًا كل الدلائل المادية التاريخية التي تعود إلى زمن النبي محمد ﷺ وصحبه وأهله وخلفائه. إن ما يحدث من أعمال هدم داخل المسجد الكبير وخارجه في مكة المكرمة، أفقدها الكثير من التراث الإسلامي المادي الذي لا يُعوّض. ولاشك أن قوة رأس المال البترولي الذي يسمح للشركات المطورة المتحالفة مع الحكومة هو السبب وراء كل ذلك، وذلك لتغيير كل شيء حتى طبيعة وطبوغرافية مكة المكرمة. تلك الطبوغرافية التي تشهد كل بوصة مربعة فيها على قصص لا نهائية من ملحمة ظهور ونمو الإسلام. رأس المال البترولي يكشف عن نفسه بضراوة في مكة المكرمة، ليكون تأثيره مثيرًا ومذهلاً ولكنه أيضًا مدمر ونفعي بامتياز. إن ما يحدث في مكة يجعلنا دائمًا نتخوّف من وجود تحالف غير مرئي بين السلطة الدينية وسلطة التدفقات النقدية البترولية، وأن تكون هُويَّة وقدسية وروحانية مكة المكرمة هي أول ضحايا هذا التحالف.

فالثابت أن هُويَّة المكان هي جزء من الهُويَّة الثقافية التي تُعتَبر منظومة متكاملة من المعطيات المادية والوجدانية والنفسية والمعنوية والاجتماعية منطويةً على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها. إن الإطار المرجعي للهُويَّة العربية يعتمد على الدين والعرف واللغة والجغرافيا والرصيد الثقافي والعمراني والفنون. ومن هذا

المنطلق فإن الهُويَّة المعمارية والعمرانية هي انعكاس للهُويَّة الثقافية الوطنية والطبيعة المكانية، وتعبير ثقافي وحضاري لإبراز هُويَّة المجتمع، أي اختيار الطابع والشكل المعماري المنسجم مع البيئة والإنسان، وإبراز للفنون الإنسانية.

«أحب مكة المكرمة ولا أستطيع أن أرى الحرم الشريف يجري تدميره والتعامل معها بهذه الطريقة،.. مكة هي القلب للعالم الإسلامي.. ما نقوم به هو تغيير القلب من قلب طبيعي لأخر ميكانيكي...»

(سامي عنقاوي) مؤسس مركز أبحاث الحج والخبير العمراني السعودي البارز

ما رصدناه حاليًا، وبوضوح، هو التأثير السلبي لمشروعات التنمية الحالية بالحرم المكي على الطابع والأجواء الروحانية للمكان. لقد فقد المكان تدريجيًا، وكذلك النسيج العمراني للنطاقات المحيطة بالحرم، جزءًا كبيرًا من طاقته المقدسة والروحانية. الصورة القديمة للمكان وجبال مكة تحيط به، كانت تساهم في تأكيد الأبعاد المقدسة لرحلة الحج، وخاصة أن هذه الجبال تحمل العديد من القصص والمواقع المقدسة، وكانت تصبغ المكان بروحانية لا يمكن أن تستمر مع إحاطة المكان حاليًا، ومستقبلاً بسلاسل من أبراج الفنادق العالمية. هذه التجربة الروحانية الحميمة، والتي لا يتناقض معها تواجد الملايين من الحجاج، ولكن بالقطع يتناقض معها تشويه جوانب التلال بخطوط السكك الحديدية والطرق والأنفاق، بينما يتم تسوية باقي التلال أو النحت خلالها للتهيئة لإقامة المزيد من الأبراج الفاخرة.

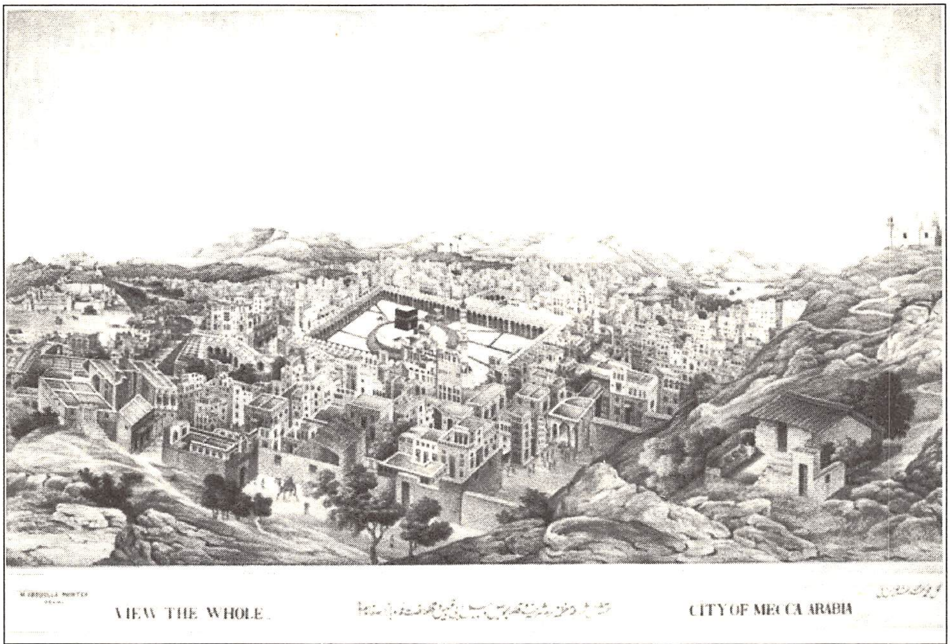

عمل فني نادر من رسم الفنان الهندي محمد عبد الله، رسم عام ١٨٤٥ يصور العمران المتناغم والمتواضع المحيط بالحرم المكي

يستخدم عمالقة الاستثمار العقاري والفندقي حول الحرم المكي أذكي آليات التسويق في محاولة نشر أفكار إيجابية عن مشروعاتهم ونواياهم التنموية. ويسوِّق بعض المطوِّرين العقاريين حججًا ضعيفة لاستمرار اعتدائهم على قداسة الحرم، وذلك عندما يؤكدون أن بناء المزيد من الأبراج يعني المزيد من الفرص للحجاج للاستمتاع بالإطلال المباشر على الحرم الشريف. ولكنهم يتناسون دائمًا أن الأثرياء فقط هم من سيتمتعون بهذه الإطلالة. ولذلك فإن مكة المكرمة تشهد انقسامًا أو بالأحرى صراعًا بين أولئك الذين يبررون الرأسمالية كإطار ملائم للتنمية حتى في المدن المقدسة، وبين أولئك الذين يعتقدون أنه ينبغي وقف وحشية الرأسمالية على أبواب مكة، التي يجب أن تُرَى تجسيدًا للمثل الإسلامية، وعلى رأسها المساواة. وحتى الآن فإن كل الشواهد توضح أن الفريق الأول المدعوم ببلايين الدولارات ومجموعة منتقاة من الفتاوى المتماسكة هو المنتصر. إن فلسفة الحج العميقة هي في شعور الجميع بالمساواة، وهو شعور حتى لا يمكن تحقيقه في فريضتين من أهم

فرائض الإسلام، وهما الصلاة وصوم رمضان. فالصلاة لا تذيب فوارق الملبس والمظهر. كما أن الصوم عند لحظة الإفطار يمثل تناقضًا بين ولائم عامرة بما لذَّ وطاب، وبين فقراء يكتفون بشربة ماء وحفنة من التمر إن وُجدت. أما الحج فحتى الملبس والمظهر يتساوى فيه الجميع، ولا تشعر بالطبقية، ولا يمكن أن تخمِّن من الغني ومن الفقير. هنا المكان الوحيد في العالم الذي تترك فيه كل ما تملك وتتطلع إلى الله سبحانه وتعالى راجيًا أن يغفر ذنوبك وأن يكتب لك حسن ما تبقى من الحياة، وحسن الختام.

«عندما أكون في مكة، وأتحرك حول الكعبة، فإنني لا انظر لأعلى».

الأمير (سلطان بن سلمان بن عبد العزيز) رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار في المملكة السعودية، معقبًا على النقد الموجه للأبراج الشاهقة المحيطة بالحرم في نهاية حواره.

أبراج البيت تتضخم وتتعملق، وتنظر من أعلى على الكعبة الشريف والحرم المكي (تصوير: فايز نورالدين).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حالة العمارة والعمران

الحج هو تتويج رحلة المسلم نحو الله، وفي المرحلة النهائية من تلك الرحلة، عندما يدخل إلى رحاب الحرم المكي الشريف، يتوقع المسلم أن تكون هذه المرحلة هي الأقرب إلى تصوره الدنيوي للقرب من الله. ومن هنا فإن تساؤلات مثل: هل برج فندق الساعة الملكية بمكة المكرمة إهانة للإسلام والذوق؟ يبدو سؤالاً هامًا ومشروعًا. إن كثيراً ممن يزور البيت الحرام ومكة المكرمة، لأداء طقوس العمرة أو الحج، والذين تحاورت معهم أثناء إعدادي لهذا الكتاب، أكدوا على مشاعر سلبية انتابتهم وهم في صحن الكعبة. كثير منهم تحدثوا عن إحساس بالاهانة والضآلة. بل إن بعضهم تناول القيم الجمالية للمكان التي أصبحت مرجعيتها ناطحات السحاب القديمة في مدينة شيكاجو، والتي بُنِيت في منتصف القرن العشرين. وقد أجمعوا على أن تلك المباني تشعرهم بالاغترابِ المكاني، والضآلة الإنسانية، وخاصة مع أحجامها المبالغ فيها على حد تعبيرهم.

وعلى الجانب الأخر من المعادلة الإنسانية بالمدينة المقدسة، نتساءل ما هو شعور هذا المسلم الذي يجلس في جناحه المكيف الهواء الذي كلفه خمسة آلاف دولار أمريكي، تبعًا لمتوسطات الأسعار المعلنة، و يحتسي القهوة الطازجة، أو يتلذذ بالآيس كريم المثلج، وهو ينظر من الواجهة الزجاجية العريضة على إخوانه المسلمين، وهم يطوفون حول الكعبة في درجة حرارة تتجاوز الأربعين درجة مئوية. حتى الحجّاح يرتدون الأغطية البيضاء البسيطة، وهي الأقرب إلى الكفن للتعبير عن الفقر أمام الله سبحانه وتعالى والمساواة. فهل يكون من الملائم أن يُنظَر إليهم من أعلى، من مسلمين آخرين تمكِّنهم أحوالهم المالية من التعالي والبذخ، وإظهار القدرة المالية والنفوذ والتأكيد على الفوارق.

«لقد أحسست بالاختناق والارتباك، وأنا في صحن الكعبة»

(من تعليق حاج في مقابلة شخصية أجراها المؤلف.)

فلسفة رحلة الحج تتعمّد المعاناة لأنها أحد مقومات الخلاص والمغفرة، وسعادة الوصول إلى بيت الله. ولذلك فالحج ليس مجرد مناسك، بل إن رحلة الحج هي بالقطع جزء من الإعداد الروحاني. أما الحجّاج الأغنياء كما تستوعبهم أبراج

الفنادق العملاقة، فسيسعدون بحمامات البخار وفقاعات الجاكوزي العطرة في الفترات البينية التي يؤدون فيها المناسك وشعائر الحج أو العمرة. تلك المناسك التي يجب أن تذكِّرهم، أو على الأقل يفترض أن تذكِّرهم بالتواضع أمام الله والمساواة بين الجميع فالكل أمام الله سواسية، ولا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى، وليس بعدد ما تملكه من كروت بلاستيكية ائتمانية حتى في أطهر بقاع أراضي المسلمين.

«سُئلتُ: ما أكثر ما أحببت في الحج؟ فقلت الأخوَّة، فالناس من كل الأعراَق والألوان من كافة أنحاء العالم يتجمعون ويصبحون واحدًا أمام قدرة الله العلي القدير»

الحاج مالك الشباز

(مالكولم إكس)

ألا يستحق ما يحدث في مكة المكرمة حاليًا أن نجتهد لإعادة صياغة فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أليس من المعروف الواجب الأمر به أن نحافظ على المدينة المقدسة، ومشاعر المساواة التي تبثها في قلوب ونفوس كل من يزورنها. ثم أليس من المنكر الواجب النهي عنه، أن نستمر في تجاهل الرصيد التاريخي والتراثي والروحاني والقدسي للمدينة على حساب سطوة تدفقات مالية قاسية حازمة تستثمر للربح وفقط للربح.

من مكة إلى الڤاتيكان: تساؤلات مشروعة

إلى جانب مكة المكرمة، المقصد الأول لحجّاج بيت الله الحرام، والتي تتربع على رأس قائمة مقاصد السياحة الدينية، من المهم أن نقارن بصورة مركزة مع حالة اثنتين من المقاصد الدينية الرئيسية في العالم، وأكثرهم استقبالاً لمئات الألوف من الحجاج والسائحين الدينين. في الجزئين التاليين نستعرض حالة مدينة الڤاتيكان ومدينة القدس كائنين من أكثر النطاقات المقدسة في العالم. دعنا نتأمل حالة واحدة تُعتبَر من أهم مقاصد السياحة الدينية والحج للطائفة الكاثوليكية وهي مدينة الڤاتيكان حيث المقر البابوي.

ساحة كنيسة القديس بطرس (سانت پيتر)، والمقر البابوي، مقصد مئات الألوف من المسيحيين الكاثوليك. صورة بانورامية لساحة القديس بطرس كما تبدو من ميدان البابا بيوس الثاني عشر، ويظهر في الوسط مسلة كاليغولا، كما تظهر نافورتا ماردينو وفونتانا على يمين ويسار المسلة. ويظهر نحو اليمين القصر الرسولي، في حين تبدو واجهة كاتدرائية القديس بطرس في الخلفية.

عندما تعتقد أن التعامل مع أقدس مكان في الإسلام يتطلب مستوى خاص من الاحترام، يصيبك الإحباط عندما ترى نصبًا تذكاريًا عملاقًا ينقض على صحن الكعبة الشريفة. ويزداد الإحباط عندما ترى، أو تقارن كيف تتعامل السلطات والقيادات الدينية المسيحية مع مدينة الڤاتيكان وكنيسة وساحة سانت پيتر، وأيضًا مع كل السياق العمراني للمدينة المقدسة للطائفة الكاثوليكية. دولة الفاتيكان هي أصغر دولة في العالم، وتقع في قلب مدينة روما عاصمة إيطاليا التي تحيط بها من جميع الجهات ويفصلها عنها أسوار خاصة. تبلغ مساحة الڤاتيكان (٠,٤٤ كم مربع) ويقارب عدد سكانها ٨٠٠ نسمة، وتعتبر بالتالي أصغر دولة في العالم من حيث عدد السكان أيضًا. تشكّل الڤاتيكان مقصدًا روحانيًا لحجّاج العقيدة المسيحية، وتشهد على تاريخ عظيم، وتجربة روحية هامة. كما أن هذه الدولة الصغيرة تمثل تمركزًا فريدًا للإبداعات المعمارية والنحتية والفنية، وخاصة التي أنتجها عمالقة عصر النهضة من فنانين ومعماريين. وتشتهر مدينة الڤاتيكان بالمقر البابوي الذي يتخذ من كنيسة سانت پيتر مقرًا رئيسيًا له. وهذه الكنيسة كاتدرائية (القديس بطرس) وتعرف رسميًا باسم بازيليك (القديس بطرس) البابوية، وهي كنيسة كبيرة بُنِيت في أواخر عصر النهضة في القسم الشمالي

من روما، وتقع اليوم داخل دولة الفاتيكان رسميًا. وتحتل البازيليك المرتفعة في موقع الرسول (القديس بطرس) قلب المدينة إلى جانب الساحة المستديرة المحوطة بصفين من العواميد والقصور والحدائق المحيطة بها. وتعتبر الكنيسة واحدة من أهم انجازات العمارة والعمران في عصر النهضة، وساهم في بنائها التراكمي على مدار سنوات طوال، مجموعة من أكثر المعماريين والفنانين تميزاً وإبداعًا. كما تحتوي الكاتدرائية على عدد كبير من القطع الفنية التي تعود لفترة عصر النهضة والفترات اللاحقة بها، ولعل من أهم هذه القطع الفنيـة أعمـال أهم رواد عـصر النهـضـة الفنان والنحات والمعماري مايكل أنجلو. وبسبب جهد المهتمين والمتعبدين فإن الكنيسة مدرجة كجزء من الفاتيكان على لائحة التراث العالمي، ومنذ العام ١٩٦٠م أُدرجت في «السجل الدولي للأعمال الثقافية تحت الحماية الخاصة في حالة الصدام المسلح. ورغم كونها أصغر دول العالم سكانًا ومساحةً فهي تستقي دورها وأهميتها من كونها مركز القيادة الروحية للكنيسة الكاثوليكية في العالم والتي يربو عدد أتباعها على ١,١٤٧ مليار نسمة، ومن كونها تحفظ في متاحفها وأرشيفها مجموعة من أرقى المنتجات الفنية للجنس البشري على مر العصور، فضلاً عن القضايا السلمية والأخلاقية التي تدافع عنها.

يلفت النظر هنا تحول الحفاظ على المدينة وشخصيتها وروحها، إلى عمل مقدس. تصاغ القوانين والمحددات والدلائل الإرشادية التي تتكاتف جميعًا لإعاقة ووقف أي محاولة للاعتداء على روحانية المكان أو لغته العمرانية والمعمارية. ويبقى هدف واحد فقط يستحق إجماع كل الأطراف وهو أن تبقى مدينة الفاتيكان مقصداً روحانيًا لحجّاج الطائفة الكاثوليكية المسيحية المتدفقين للمدينة من كل أنحاء العالم.

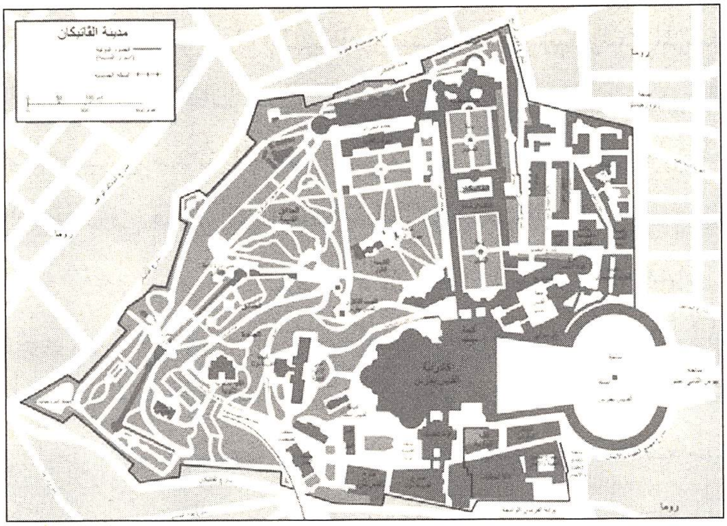

خريطة دولة الفاتيكان

تصور جرافيكي لما ما يمكن ان تبدو عليه ساحة كنيسة سانت پيتر إذا أقيم على حافتها فندق عملاق مماثل لما تم حول الكعبة الشريفة. المصدر: http://carbonatoms.wordpress.com

من مكة إلى القدس؛ تحديات القداسة المكانية

الحالة الثانية الجديرة بالفحص أيضًا، هي حالة مدينة القدس والمسجد الأقصى. ولا يمكننا لوم إسرائيل على العبث بالمسجد الأقصى، فلم تجرؤ إسرائيل، ولن تجرؤ على فعل ما فعلناه ونفعله بالحرم المكي. وكل ما قيل عن هدم أساسات الأقصى وحفر الأنفاق وهدم باب المغاربة لم يثبت حتى الآن، ولم تتمكَّن بعد أي من المنظمات العاملة في مجال التراث المعماري والعمراني من تجميع أدلة عقلانية وليس اتهامات عاطفية تمكنها من بناء قضية متماسكة ضد إسرائيل أمام الأوساط العالمية. والواقع انه من الصعوبة في سياق القضايا التي يناقشها هذا الكتاب، ألا نلتفت لنوع أخر من المقارنة. مقارنة جديدة بين الحرم المكي والحرم القدسي. حالة الحرم القدسي تستحق إلقاء الضوء، وخاصة مع تزايد الأصوات التي تشير دائمًا إلى ما يعرف بعملية تهويد القدس، وتصل أحيانًا إلى ادعاء أنها محاولات لهدم القدس. فعلى سبيل المثال فإن مشروع ربط الحي اليهودي في البلدة القديمة وساحة البراق هو عبارة عن مجموعة من المصاعد والأنفاق التي تحقق هذه الصلة، ولم تؤثر على أيٍّ من الآثار العربية أو الإسلامية والتي استنجد البعض بأنها ستندثر كلها من أجل هذا المشروع. هنا نفرِّق بصورة جذرية، وفقط من منظور عمراني وتخطيطي، بين تطوير البنية التحتية ودعمها بالتقنيات الحديثة وبين إنهاء القيمة الروحانية والمقدسة للمكان من خلال مشروعات تتجاهل دوره الديني وتاريخي العمراني والإنساني.

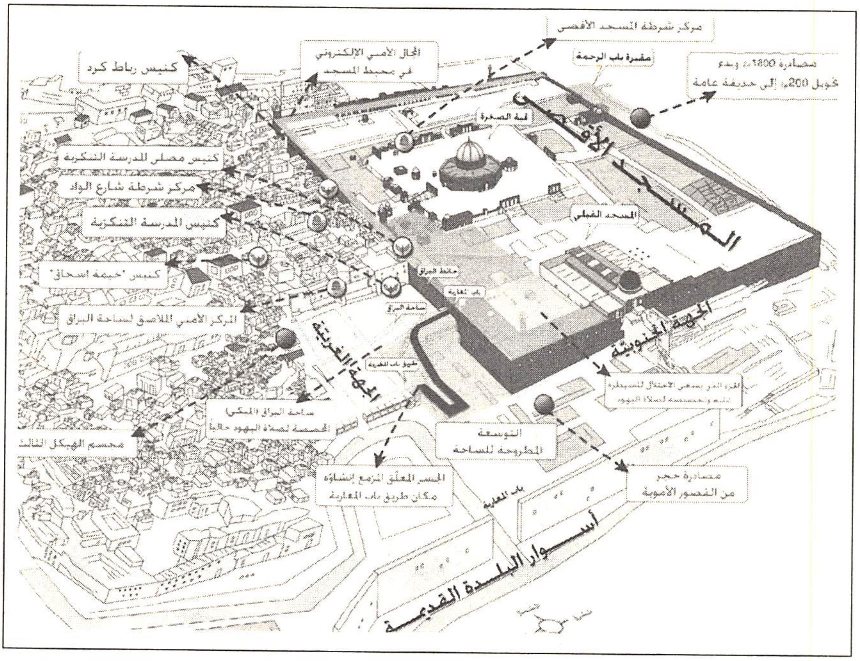

الإطار المعماري والعمراني للمسجد الأقصى وقبة الصخرة.

لا يمكننا إنكار مطامع إسرائيل في السيطرة على مدينة القدس ومكوناتها. ولا يمكن أن ننكر الجهد الحثيث الذي يُبذَل من جهة قوى الاحتلال لتهويد القدس، ولكن المثير للدهشة بل والإعجاب أحيانًا، أن كل هذه الجهود تتم بدون الإجهاز على قيمة المكان وتدمير مقوماته التراثية والتاريخية، وإفقاده مكوناته الروحانية والمقدسة. لم تجرؤ إسرائيل - ولن تجرؤ - على تجاوز القيم الروحانية والتاريخية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، ويمكن مراجعة السياق العمراني للمسجد الأقصى على مدار العقود الخمسة الأخيرة، لتأكيد الوجود الواضح، والتفعيل الناضج لاشتراطات عمرانية وعمرانية قاسية وقواعد تنموية صارمة تمنع أي مشروعات ينتج عنها تضاؤل قيمة المكان أو تهميشه من الصورة البصرية للسياق العمراني للمدينة.

السياق المعماري والعمراني لقبة الصخرة والمسجد الأقصى حيث يتبين الاحترام الشديد لقيمة المكان، وضمان سيطرة ملامحه على الإطار العمراني الأشمل

النهاية: هل ذهبت قداسة مدينة مكة المكرمة للأبد

بينما نري مشروعًا فريدًا للحفاظ على مقر البابوية في الفاتيكان، وتحويل مسئولية صيانته إلى مسئولية عالمية، وبينما نرى جهود إسرائيل للسيطرة على القدس، ولكن مع فهم كامل لقيمة سياقه التاريخي والتراثي، نقف مصدومين أمام حالة المدينة المقدسة مكة المكرمة. فكما حدث في حالة قلعة أجياد، التي ذكرناها في فصول سابقة، فقد تم تسوية الموقع بالكامل وتم إخلاء السكان في خلال أسبوع واحد، وهو من أكثر مواقع المدينة القديمة تاريخًا وقيمة تراثية. ومازال مسلسل التضحية بكل شيء مقدس من أجل بناء المزيد من الفنادق السبعة نجوم مستمرًا. على سبيل المثال هناك مشروع جبل خندمة على التلال الشرقية، والذي إذا نُفِّذ سيزيل الموقع الذي وُلد فيه النبي ﷺ. وكما يطرح (العلوي ٢٠١٢)، مفسرًا ما يحدث بأنه تدمير متعمد مَن الدولة وهابية التوجه التي ترى أن كل المواقع التاريخية مشجِّعة على الوثنية، وبالتالي يجوز إزالتها ومحوها من تاريخ المكان.

مكة المكرمة غنية بمناطق لها أهمية دينية وتاريخية، ومعظمها، ان لم يكن كلها، تتعلق بالحج ورحلته وطقوسه وفلسفته. بعض هذه المواقع داخل الحرم المكي، وبعضها خارجه، ولكن في نطاق المدينة الأشمل. وكل هذه المواقع لها أهمية عميقة، نظراً لأنها شهدت أحداثاً هامة جداً في التاريخ الإسلامي، مثل الأماكن المرتبطة بحياة النبي ﷺ، وجهاده لإرساء قواعد عقيدة جديدة في نطاق وثني رافض. والمحزن أن معظم هذه المواقع خارج الحرم المكي تقع في مناطق الضواحي أو نطاق المدينة الأشمل، الذي يسير فيه معدل التنمية الاستثمارية الساحق لكل ما هو تاريخي وتراثي. وكان بعض الباحثين قد أطلق تحذيرات مبكرة تعود إلى قرابة العقدين، كان يمكن وقتها تدارك الكثير من الأخطاء التي وقعت الآن ويصعب علاجها. من أبرز الأعمال البحثية الدراسة التي قام بها توبة (١٩٩٧م). ولكن مازال هناك أمل أن يتم وقف هذا المسلسل القاسي، ووضع إطارا جديد لتنمية مكة وما حولها بصورة تعطي الأولوية القصوى لنوعية التجربة التي تقدمها رحلة الحج إلى الملايين القادمة من كل بقعة على خارطة العالم.

نبّه فقيه (٢٠١١م) أيضاً في أطروحته، إلى تأثير الحرم المكي الشريف بالغ الأهمية على عمارة مكة التقليدية، واستنكر الوضع الحالي حيث إن كل توسعة تحدث للمسجد الحرام يكون ناتجاً عنها هدم وإزالة للمباني التقليدية المحيطة به. كما أوضح أنه بسبب أهمية الأرض المحيطة بالحرم المكي وعوائدها الاستثمارية الفائقة، ارتفع سعرها. وأدى ذلك إلى قيام المستثمرين بهدم المباني التقليدية ذات القيمة التاريخية والتراثية، واستبدلوها ببناء أبراج سكنية شاهقة الارتفاع وسط رعاية حكومية دينية تثير التساؤل. ومن أهم ما طرحت دراسة فقيه (٢٠١١م) من التوصيات المقترحة لتأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة هو أنه بسبب ما لمكّة من أهمية بالغة عند المسلمين، يجب أن تكون قدوة لجميع المدن الإسلامية في شتى المجالات، وعلى كل الأصعدة، ومنها المجال العمراني والمعماري؛ لذا يجب أن يكون لها هوية خاصة وطابع معماري مميز، والالتزام بأسلوب وطراز معماري إسلامي يتفق مع قدسية المكان ومستوحى من التراث. كما نادى بوجوب المحافظة على المناطق القديمة، والتي تعكس التطور التاريخي للمدينة. ومن ثم فينبغي أن تقوم الجهات المسئولة بوضع مجموعة من

الضوابط والاشتراطات المتحكِّمة في العمران، وتكون عن طريق نخبة من المعماريين الوطنيين ولا ينبغي الاعتماد في ذلك على النماذج المستوردة من الخارج والتي لا تتناسب مع ظروفنا المحلية؛ وذلك لتأصيل العمارة المكية التقليدية في عمرانها المعاصر.

«إنها النهاية من مكة المكرمة،.... و لماذا؟ معظم هذه الفنادق هي ٥٠٪ شاغرة ومراكز التسوق فارغة، الإيجارات غالية جداً في الأسواق الفاخرة لا تسمح للتجار الصغار باستعادة أعمالهم، والأكثر قسوة أن الناس أثناء الصلاة في المسجد الملحق الجديد سوف لا تكون قادرة حتى على رؤية الكعبة». العلوي، ٢٠١٢.

وبسبب هذه النزعة الرأسمالية أصبحت أم القرى الطاهرة مكة المكرمة أكثر نطاقات الاستثمار العقاري غلاءً في العالم، فالقدم المربع حول المسجد الكبير يبلغ ثمانية عشر ألف دولار أمريكي كما صرح محافظ المدينة أسامة البر. والمتوقع أن يزداد معدل الارتفاع الصاروخي في أسعار الأراضي والعقارات، خاصة مع الدفع لاستمرار زيادة عدد الحجّاج والمعتمرين الذي وصل العام الماضي إلى ١٢ مليون سنويًا. وتبعًا لتطلعات وزارة شئون الحج ووزارة السياحة والآثار يتوقع لهذا الرقم أن يرتفع إلى ١٧ مليون حاج ومعتمر بحلول عام ٢٠٢٥م. ويصاحب هذا افتتاح القطار السريع لربط مدينة جدة بالحرمين الشريفين وتوسعة مطار الملك عبد العزيز الدولي ليستوعب ٨٠ مليون مسافر سنويًا. وفي خضم تنفيذ كل هذه المشروعات العملاقة بمساعدة التدفقات النقدية البترولية اللانهائية، يتوقف المحلل والناقد أمام الأوامر التي أصدرها الملك عبد الله بعمل مخطط متكامل لمكة ومحيطها. ما هي جدوى هذا القرار وخاصة بعد هدم كل جبال المدينة المقدسة بالديناميت وإزالة تاريخها الروحاني والإنساني بالبلدوزرات لإفساح المجال للمشروعات العملاقة والتي ستتحول إلى حقائق يُلتزم بها في أي مخطط عام يُزمع التفكير فيه لمكّة.

في نفس الإطار تأتي وجهة النظر الرسمية أحيانًا صادمة، أو غير واعية للتداعيات الخطيرة لمثل هذا النوع من المشروعات. بل تصل حالة الإنكار أحيانًا إلى مستوى يرى

فيما يحدث حول مكة إضافة لقيمة المكان وخدمة لجموع المسلمين . يوضح ذلك المثال التالي وهو تصريح من بعض المسئولين لوكالة رويتر الإخبارية .

«هذا المشروع يحترم قداسة وعظمة المكان، والتي تتطلب الاهتمام الكبير من المسلمين».

وزير العدل السعودي (محمد العيسى) ، معلقًا على بدء مشروعات التوسعة والتطوير وبناء مجموعات جديدة من ناطحات السحاب والفنادق الفاخرة . تصريح لوكالة رويتر الإخبارية .

بينما تتناقض آراء خبراء العمارة والتخطيط المعنيِّين بالحفاظ على الشخصية المميزة المقدسة للمدينة ، مع وجهة النظر الرسمية ، كما يتجلي بوضوح في الخطاب المستمر للباحث (سامي عنقاوي) ، خبير دراسات العمارة الإسلامية بالمملكة العربية السعودية ، وهو نفس المشروع الذي وصفه بأنه تناقض كامل مع طبيعة مكة المكرمة وقداسة بيت الله . فقد صرح (عنقاوي) لوكالة رويترز الإخبارية أيضًا مستنكرًا : «كلٌّ من مكة والمدينة تقريبًا انتهوا تاريخيًا ، لا تجد أي شيء الآن إلا ناطحات السحاب» .

إن استمرار خنق مكة المكرمة بالوحوش الأسطورية لاسفيجاسية المرجعية ، بحجة تحقيق الجمال والتنمية تنبئ عن تدليس مؤلم . فكما أشار الناقد (جيروم تايلور) فقد أصبح تشبيه مكة بمدينة لاس ڤيجاس حديثًا محليًا . حيث أشار إلى أن الأحاديث الخفية التي لا يستمع إليها البوليس الديني (يقصد جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تتحدث عن أن سكان مكة يشبِّهون مدينتهم بمدينة لاڤيجاس من منطلق الذم وليس المدح . واقترح بشير (٢٠١٠م) أنه ينبغي إعادة تسمية مشروع تطوير مكة إلى «انتهاك حرمة مكة المكرمة باسم التنمية الحضرية والربحية» . تدمير الأراضي المقدسة داخل حرم المسجد الحرام ونصب هذه المسوخ الضخمة في وسط مكة المكرمة يلوث نقاء وقدسية أول بيت للعبادة ومحيطه المقدس . الذي يفترض أنه أُنشئ من قبل الرجل الأول في البشرية ، آدم عليه السلام . وما يحدث من تسويقه على أنه مشروع الحداثة ببيت الله الحرام هو في الواقع تعبير وحشي عن التخلف الروحي .

العدم هو البناء: تصورات لمستقبل أفضل

إلى جانب الأهمية الكبرى في إيقاف المسلسل المتسارع في أعمال البناء العملاقة التي يموِّلها رأس المال البترولي، وتحيط بالحرم من كل جانب، يبدو أن هناك مقترحات أكثر حسمًا. فقد يكون من الملائم أيضًا أن يستبدل شعار «الهدم هو الحل» الذي قارب حالة مكة المدينة المقدسة بحالة مدينة لاس ڤيجاس. هذا الشعار الجديد المقترح هو «الهدم هو البناء». حقًا «الهدم» هو «البناء» عندما يساعدنا الهدم في التخلص من اعتداءات مجحفة وقاسية أصابت قلب المدينة المقدسة، وأزالت كل ملامح عفويتها وبساطتها وقدسيتها وقدرتها على وضع البشر جميعًا على قدم المساواة.

البداية الأخيرة: مكة المكرمة محمية روحانية

بكل ما قد يبدو في لغة الكتاب من نزعة للتشاؤم من إمكانية تدارك ما حدث بالمدينة المقدسة، ولكن العكس تمامًا هو واقع رسالة الكتاب وحقيقة مضمونه. حقًا هناك إمكانية لبداية جديدة في التعامل مع مدينة مكة المكرمة. ولكني لا أبالغ إذا قلت إنها «البداية الأخيرة». إذا لم نملك إرادة نموذجية لإدراك المعدل المتسارع في فقد روح المدينة، والبدء الفوري في تشكيل كيان إسلامي معرفي متنور يتولى صياغة المنظومة المستقبلية لأم القرى، فيقينًا إننا سنفقد ما يستحيل تعويضه. يجب أن يصاغ منطق التعامل التنموي والتطوير العمراني مع مكة المكرمة، من منظور واحد فقط، وهو أنها محمية روحانية مقدسة. هذه المحمية من المكانة في قلوب الملايين مما يجعلها تستحق هدم كل ما أساء إليها وإلى قدسيتها وتاريخها، مهما كانت التكلفة. هذه المحمية تستحق الحفاظ على مقوماتها وعناصرها وأجوائها وعمرانها وعمارتها وروائحها وأصواتها، وكل ما له ارتباط بالتجارب الروحانية والحسية والعقلية لهذا المكان الفريد.

في حالة الحرم المكي، فقد ابتُذل المكان وفقد قيمته الروحانية وتحول إلى سياق تجاري مادي عقاري تتواضع أمامه لاس ڤيجاس المقامرة المغامرة. يجب أن يتحوَّلا إلى محميات روحانية مقدسة تحاط بأقل ما يمكن من العمرَان، وتتَدرج التنمية وتتزايد كلما بعدنا عن نطاق الحرم. يجب أن يكون هناك عدة نطاقات للمحمية الروحانية تبدأ من

الجوهر المركزي المقدس الذي يحوي بيت الله، وتتدرج وصولاً إلى الأطراف البعيدة حيث أماكن الإقامة والفنادق والأسواق. إن التطور المذهل في أنماط النقل العمراني تتيح لنا عشرات الوسائل الآمنة الصديقة للبيئة التي يمكن أن تنظم حركة سلسلة وانسيابية للزوار والحجاج والمعتمرين، من حيث إقامتهم إلى موطن ممارسة شعائرهم. وبالتالي نعيد إلى الكعبة والحرم المكي قيمتهما الروحانية ونزيل عنهما تلوث الاستثمار العقاري المادي «اللاسفيجاسي» القبيح.

ملاحظات ختامية

لا يوجد ما هو أكثر قيمة من الكعبة المقدسة، ولا يوجد ما هو أكثر أهمية للإنسان المسلم، في كل بقاع العالم، من رحلة الحج. ومع كل المظاهر السلبية التي توقفنا أمامها في فصول الكتاب، والقرارات التي خذلتنا عند التعامل مع سياق مكة المكرمة، فمازالت لدينا كافة الفرص طالما نملك العقول والإرادة والإيمان. إن حالة المدينة المقدسة مكة المكرمة، تستدعي مشروعًا إسلاميًا جامعًا تُشحَذ له طاقات العلماء المخلصين، والمفكرين الغيورين على دينهم وثقافتهم، والمخطِّطين والعمرانيين والمعماريين المدركين لأدوارهم في التنمية الواعية والإبداع. هؤلاء جميعًا مطالبون بتنوير متخذ القرار لإنهاء فصول مليئة بالأخطاء، بل بالجرائم، في حق المدينة المقدسة، وأن نفتح فصلاً جديدًا في مستقبل المدينة يعيدها مرة أخرى إلى كونها المكان الأكثر قداسة في العالم شكلاً ومضمونًا.

كل الرجاء أن يكون هذا الكتاب محرِّضًا على التفكير ومحفِّزًا على الإبداع ومثيرًا للنقاش الثري لإنقاذ الحرم المكي وسياقه العمراني وكل مكة المكرمة، والحرم النبوي أيضًا، وإيقاف وحشية رأس المال والرغبات اللانهائية في التربح. إن قرارًا عربيًا إسلاميًا إقليميًا عالميًا، يجب أن يُتخَذ بتحويل الحرم المكي وسياقه المكاني وحدوده المقدسة، إلى محمية روحانية، ولا يمكن أن يقبل الانتظار. فكل يوم، بل كل لحظة نترك فيها الحرم المكي يتعرض لهذه الموجات من التغريب والتدمير ومحو وطمس كل مقدس وروحاني به، قد تصل بنا إلى حالٍ لن ينفع معها الندم.

المراجع والقراءات المختارة

أولاً: المراجع العربية:

- الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. مكة المكرمة. الجزء الأول، الطبعة الخامسة، مطابع دار الثقافة ١٤٠٨هـ.

- البلادي، عاتق غيث. معالم مكة التاريخية والأثرية. مكة المكرمة. دار مكة ١٤٠٣هـ.

- الحربي، ثامر. البس، عبد الحميد. العمارة في مكة المكرمة والمدينة المنورة بين القديم والحديث. جمهورية مصر العربية: جامعة الأزهر، كلية الهندسة. من ٥ إلى ٨ رجب ١٤١٤هـ.

- الحموي، ياقوت. معجم البلدان. الجزء ١٨، بيروت: دار صادر.

- الديرشوي، عبدالله. «الخصائص الكبرى لمكَّة المكرمة»، في المجلَّة العلمية لجامعة الملك فيصل، (علمية محكمة) عدد خاص بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، لعام (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

- السباعي، أحمد. تأريخ مكَّة، دراسات في السياسة والعلْم والاجتماع والعمران. مكَّة المكرمة، الرِّياض: مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٩٨٤م. ج: ١، ص: ٢٧.

- السدحان، عبد الله. ٢٠١٠. الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني: المدينة الخليجية نموذجا. (الدوحة: مركز البحوث والدراسات - قطر).

- الشريف، أحمد. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول. القاهرة، دار الفكر العربي. ١٩٦٥م.

- الغامدي، عبد العزيز صقر. وآخرون. مكة المكرمة في شذرات الذهب للغزاوي. دراسة وتحقيق لبعض المعالم الجغرافية). مكة المكرمة. نادي مكة الثقافي: ١٤٠٥هـ.

- الفاسي المكي المالكي، الحافظ أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. تحقيق: التدمري، عمر بيروت، لبنان. دار الكتاب العربي. ١٩٨٥م.

- القرعاوي، سليمان. ٢٠٠٥. مكة المكرمة: إعجاز موقعها، وحرمتها، ومنزلتها، وتوسعتها. في المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (علمية محكمة) عدد خاص بمناسبة اختيار مكَّة المكرمة عاصمة للثَّقافة الإسلاميَّة، لعام (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ٤ - ١٠.

- الرقيبة، عبد الله صالح. الحرمان الشريفان والمشاعر المقدسة التوسعات والتطوير. المملكة العربية السعودية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤٢٣هـ.

- الهذلول، صالح علي. المدينة العربية الإسلامية (أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية. المملكة العربية السعودية. دار السهن: الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

- بن دهيش، عبد اللطيف بن عبد الله. عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي: دراسة تاريخية حضارية). المملكة العربية السعودية. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

- حريري، مجدي محمد عبد الرحمن. أسس تصميم المسكن في العمارة الإسلامية. مكة المكرمة. (شعبان ١٤٠٩هـ - مارس ١٩٨٩م).

- خان، سلطان محمود. منازل جدة القديمة؛ دراسة في العمارة الوطنية لمدينة جدة القديمة. الرياض: إدارة البحث العلمي لمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. ١٩٨٦م.

- رفيع، محمد. مكة في القرن الرابع عشر الهجري. مكة المكرمة. نادي مكة الثقافي. ١٩٨١م.

- عيسى، محمود. (١٤٢٢هـ). تطور النسيج العمراني وتغير ملامحه حول المسجد الحرام بمكة المكرمة. بحث قدم لندوة البيئة العمرانية لمكة المكرمة والمدينة المنورة وتحديات المستقبل. جامعة أم القرى مكة المكرمة شعبان.

- فدعق، طارق علي. تطوير تخطيط المنطقة المركزية حول المسجد الحرام خلال عشرين عاما. كلية تصاميم البيئة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.

- فارسي، محمد سعيد. التكوين المعماري والحضري لمدن الحج بالمملكة العربية السعودية. المملكة العربية السعودية. مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع: الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

- فايز، زهير. ٢٠٠٤. التقرير النهائي للمخطط الهيكلي لمدينة مكة المكرمة. منشورات الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة.

- فرحات، عبد المحسن، وفدعق، طارق علي. نحو مبادىء متكاملة لتخطيط وتصميم المنطقة المركزية لمكة المكرمة. مجلة جامعة الملك عبد العزيز، العلوم الهندسية، م٤، ١٩٩٢م.

- فرحات عبد المحسن، وبليلة ياسر. الهيئة العليا لتطوير مكة المكرمة وإمكانات التطوير. بحث قدم لندوة البيئة العمرانية لمكة المكرمة والمدينة المنورة وتحديات المستقبل. جامعة أم القرى مكة المكرمة، شعبان ١٤٢٢هـ.

- فقيه، صادق. ١٤٣١. تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية.

- مقبل، فهمي. ٢٠٠٨. تاريخ مكة المكرمة عبر العصور. مجلة الدرعية: العددان ٤٢ و ٤٣، جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٩هـ/ يونيو - سبتمبر ٢٠٠٨.

- أبحاث الحج، مركز. نماذج من مباني مكة التقليدية. مكة المكرمة. مركز أبحاث الحج، جامعة أم القرى: ١٤١١هـ.

- مدَّاح، أميرة بنت علي. الحياة الاجتماعية والتجارية والثقافية بمكة المكرمة في العهد السعودي الزاهر. مجموعة أبحاث بعنوان توسعة وعمارة الحرمين الشريفين (رؤية حضارية.

- مطر، فوزية حسين. تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف إلى نهاية العصر العباسي الأول. جدة. مكتبة الملك فهد الوطنية: الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

- نجيم، رقية. البيئة الطبيعية لمكة المكرمة (دراسة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الحرم الشريف المملكة العربية السعودية. مؤسسة الفرقان للتراث: الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

- جامعة أم القرى (إصدار ثقافي). ٢٠١٠. ملامح من التراث العمراني لمدينة مكة المكرمة. (الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة).

ثانياً: التقارير الفنية

- الشؤون البلدية والقروية، وزارة. التراث العمراني في المملكة العربية السعودية. المملكة العربية السعودية. وزارة الشؤون البلدية والقروية، شعبان ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م.

- الشؤون البلدية والقروية، وزارة. بوابة الحرمين الشريفين. وزارة الشؤون البلدية والقروية، أمانة جدة، جدة، ١٤١٦هـ.

- الشؤون البلدية والقروية، وزارة. دليل المحافظة على التراث العمراني. المملكة العربية السعودية. وزارة الشؤون البلدية والقروية. الرياض. ١٤٢٦هـ.

- المهندسين الاستشاريين، اتحاد. مشروع جلالة الملك عبد العزيز لتوسعة وعمارة المسجد الحرام. وزارة المالية. المملكة العربية السعودية. صدر في عهد الملك خالد بن عبد العزيز.

- أمانة العاصمة المقدسة، وكالة التعمير والمشاريع. في ندوة الإبداع والتميز في النهضة العمرانية خلال مائة عام. وزارة الأشغال العامة والإسكان، الرياض، ١٤١٩هـ.

-أمانة العاصمة المقدسة. تطور منطقة الحرم الشريف الحضرية. مكتب البيئة، رجب ١٤٢١هـ.

- وزارة الشؤون البلدية والقروية. المخطط الهيكلي لمكة المكرمة (التقرير الفني). ١٤٢٠هـ.

- الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي . الحرمان الشريفان : التوسعة والخدمات خلال مائة عام . دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤١٩هـ.

- الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة . ٢٠٠٥ . مشاريع التطوير الكبرى بمكة المكرمة . مجلة البناء . عدد ١٧٣ . ص : ٥١-١٠٢ .

- مركز فقيه للأبحاث . بعض جوانب التكوين العمراني حول المسجد الحرام : تحليل وتقويم . مكة المكرمة، ١٤٢١هـ.

- وزارة الشؤون البلدية والقروية، وكالة الوزارة لتخطيط المدن . تخطيط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة : منطقة الحرم الشريف . ١٤٠٦هـ.

ثالثاً: المراجع الانجليزية

- Ahmed, Akbar S. 2004. Postmodernism and Islam. Revised Edition. London: Routledge.

- Angawi, S. M. 1988. Makkan Architecture, in School of Oriental African Studies., Ph. D. Thesis, University of London: London..

- Al-Hahtlul, S. 1981. "Tradition, Continuity and Change in the Physical Environment: the Arab-Muslim City. " PhD Dissertation: Massachusetts Institute of Technology.

- Al-Hathlul S. (2004) "Planning in the Middle East, moving Toward the Future" in Habitat International, Vol. 18, No. 5, pp. 641-643.

- Bangs, Herbert. 2006. The Return of Sacred Architecture. Inner Traditions; Original edition.

- Biancha, Stefano. 2000. Urban Form in the Arab World. Thames and Hudson, New York.

- Bloom, Minaret, symbol of Islam, NA4670. B55 1989.

- Brend, Barbara. Islamic Art. Harvard University Press (1992).

- Bsheer, Rosie. 2010. Choking Mecca in the Name of Beauty and Development (Part I). Oct 21 2010. In Jadaliyya.

-http://www.jadaliyya.com/pages/index/251/choking-mecca-in-the-name-of-beauty_and-developmen

- Bsheer, Rosie. 2010. Choking Mecca in the Name of Beauty and Development (Part 2). Nov 19 2010. In Jadaliyya. http://www.jadaliyya. com

- Fadaak, T and Farahat, A. 1988. The Challenges of the Haram District Urban Renewal Project. College of Engineering, King Abdul Aziz University Sponsored Research Project 1409 AH 1988 AD.

- Frishman, Martin. and Kahn, Hasan-Uddin. (eds.) 1994. The Mosque: History, Architectural Development & Regional Diversity.

- Grabar, Oleg. 1984. From the past into the future: On two designs for state mosques. Architectural Record, June 1984

- Hillenbrand, Robert. (1998). Islamic Art and Architecture. Thames & Hudson.

  - Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning. Columbia University Press.

- Holod, Renata. 1997. Contemporary Mosque. Rizzoli International Publications.

- Grabar, Oleg and Ettinghausen, Richard. 1988. The Art and Architecture of Islam: 650-1250 (Viking).

- Kahera, Akel Ismail. 2008. Deconstructing the American Mosque: Space, Gender, and Aesthetics. University of Texas Press.

- Kuban, Dogan. (1997) Muslim religious architecture, part 2: The development of religious architecture in later periods, Brill Academic Publishers.

- Long, David. The Hajj and Its Impact on Saudi Arabia and the Muslim World. October 25, 2012. http://www. susris. com/
- Nasr, S. H. 1987. Islamic Art and Spirituality. State University of New York Press.
- Nasr, S. H. 1990. Traditional Islam in the Modern World. Routledge London and New York.
- zkan, Süha. 1996. Faith, Culture and Architecture. In Faith and the Built Environment. Architecture and Behavior. Vol. 11, no 3-4, p. 181 - 186
- Saqqaf, A. (ed.) 1987. The Middle Eastern Cities. New York: Paragon House.
- Sarrazin, Thilo. 2010. Germany abolishes itself. German Edition Max Nemstein.
- Sendi, Munir. 1988 Urban Development in Makkah: Urban Design and Development Guidelines for the Central Area Master of Architecture Thesis, University of Kansas.
- Serageldin, Ismail (ed.). 1989. Space for Freedom. London: Butterworth Architecture.
- Serageldin, I. 1996. Architecture of the Contemporary Mosque. John Wiley & Sons.
- Simmins, Geoffrey. 2008. Sacred Spaces and Sacred Places. VDM Verlag.
- Sutton, Daud. 2007. Islamic Design: A Genius for Geometry. Walker & Company.
- Ramadan, Tariq. (2003) Western Muslims and the Future of Islam. Oxford University Press, USA.
- Radical Reform: Islamic Ethics and Liberation. Oxford University Press, USA.

- _____. (2009) Islam, the West and the Challenges of Modernity. The Islamic Foundation; Tra edition.
- The World Bank World Development Report. 2000 Oxford University Press, New York.
- Touba, El Sayed M. 1997. Conservation in an Islamic context a case study of Makkah, Durham theses, Durham University. Available at Durham E-Theses Online: http://etheses. dur. ac. uk/4981/
- United Nations Center for Human Settlements (Habitat). 2001. Cities in a Globalizing World Earthscan Publications, London.
- Wainwright, Oliver. 2012. Mecca's mega architecture casts shadow over hajj. The Guardian, Tuesday 23 October 2012.
- Wainwright, Oliver. 2013. As the Hajj begins, the destruction of Mecca's heritage continues. The Guardian, Monday 14 October 2013.

رابعاً: المواقع الالكترونية

http://wwww.ksu.edu.sa/kfs-website/source/37.htm

http://blogs.tribune.com.pk/story/14595/new-plans-for-saudi-arabia-bulldozing-historic-holy-sites/

http://bridgingcultures.neh.gov/muslimjourneys

http://www.islamicity.com/orgs

http://www.susris.com/

http://etheses.dur.ac.uk/4981/

http://www.fairmont.com/makkah/

http://www.emaar.com/makkah/

●●●